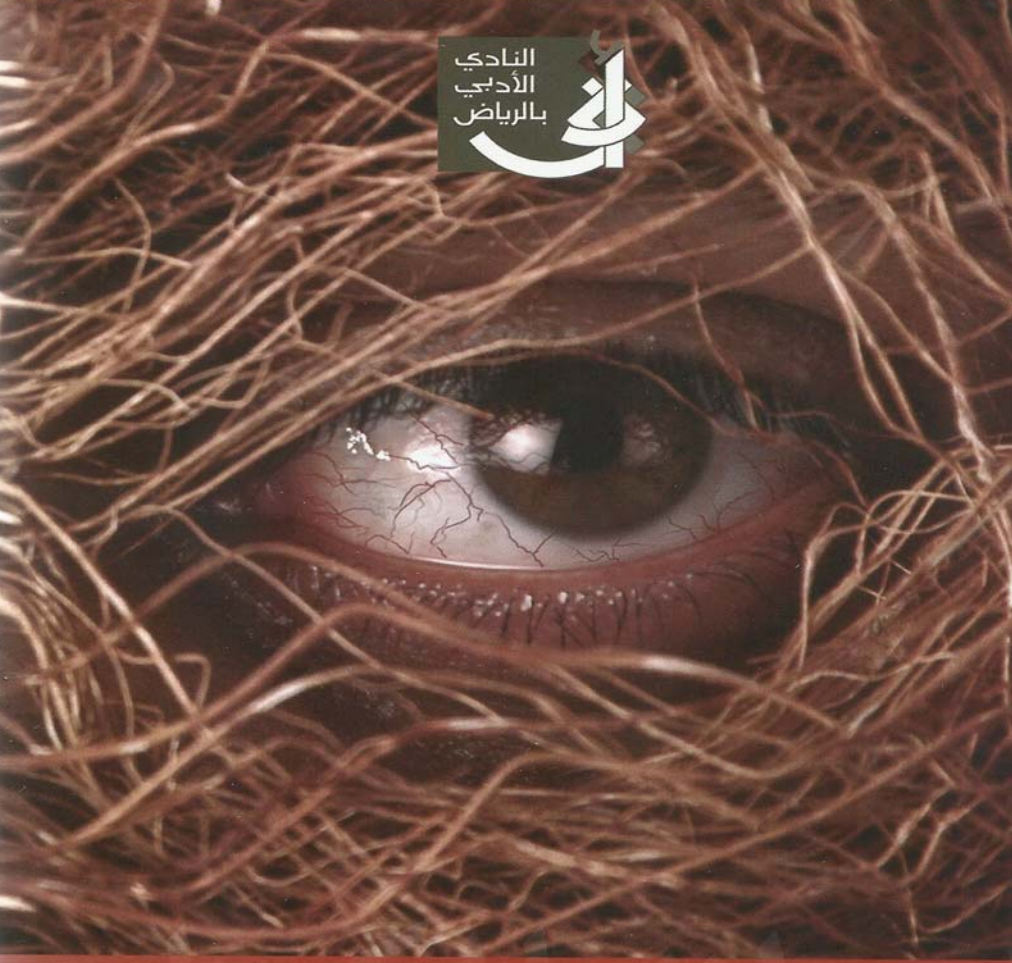

سلسلة الكتاب الأول (٣)

الكتاب الثامن
٢٠١٧/٨/٢٤

Twitter: @abdulllah1994

حكاية الصبي الذي رأى النوم

عدي جاسر الحربش

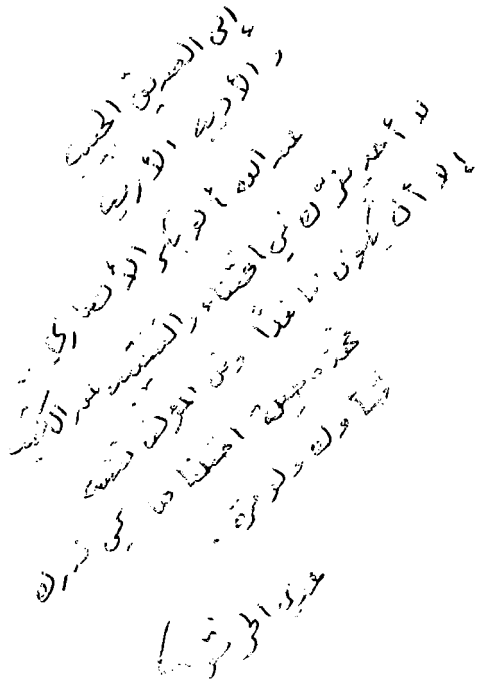

عدي جاسر الحربش

حكاية الصبي الذي رأى النوم

مجموعة قصصية

Twitter: @abdulllah1994

ⓒ النادي الأدبي بالرياض، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحربش، عدي جاسر

حكاية الصبي الذي رأى النوم: مجموعة قصصية./ عدي جاسر الحربش.-
الرياض، ١٤٢٩هـ

٢٣٢ ص؛ ١٤×٢١ سم

ردمك: ٦ - ٦١ - ٦٢١ - ٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص القصيرة - السعودية أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠٩٥٣١ ١٤٢٩/٧٠١

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٧٠١

ردمك: ٦ - ٦١ - ٦٢١ - ٩٩٦٠-٩٧٨

الحقوق محفوظة للنادي الأدبي بالرياض

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

عدي جاسر الحربش

قاص من السعودية

Email- adi_jh@ hotmail.com

سلسلة الكتاب الأول

سلسلة تحتفي بالحرف الأول من المبدع

وتشمل مختلف الأجناس والأشكال الإبداعية

رئيس النادي سعد البازعي

المشرف على السلسلة عبدالله الوشمي

Twitter: @abdulllah1994

الجاريةُ ذاتُ الشعرِ الطويل

Twitter: @abdulllah1994

"لكنني أحببتها بولهٍ كما لو أنَّ جميعَ مصائبي كان سببُها أنها مرةً فكّت شعرها
وأسدلتهُ فوقي ليبتلعني الظل"
بابلو نيرودا

سمعتُ عن المؤرخ الطبري ذات مرةٍ أن من أصعب الأمور التي يقارفها المؤرخ حينما يعالج الحوادث والأخبار هو أن يحددَ بدايةً لها. مثل هذه العقبة الكأداء تزدادُ تمنّعاً واستعصاءً إذا ما كانت القصة شبيهةً بقصتي هذه التي اختلطت فيها الحقيقة بالخيال، واللامعقول بالمعقول، والتي تقوّل فيها العامة وأضافوا إليها ما يتقولونه ويضيفونهُ عادةً إلى القصص التي تدورُ في ثنايا وغرفِ القصر. أنا لستُ مؤرخاً كي أعنى باستخلاص الحقيقة، وإنما رجلٌ سمعَ هذه القصة مراراً حتى خلبت لبّه، فأخذ يتسقّط جميع الأقوال والروايات التي تتعرض لها وتتحدثُ عنها.

أظنُ أن القصة بدأت تحديداً في الشهر الأول من وصول قبيحة إلى القصر، حينما سألت مولاها الخليفة إن كان يروقه الشعر الطويل أم القصير، كانت قبيحة جارية رومية، سافرَ بها النخاس الأسمر من بلادِ الثلجِ إلى بلادِ الحرّ، حتى انتهى بها بينَ حريم وجواري الخليفة. كانَ وجهها الصبوحُ دائرياً، وكأنه القمر الذي لاحقها في رحلتها الطويلة إلى بغداد، أما عيناها ، فلقد كانتا بلونِ الهزيعِ الأخيرِ من

Twitter: @abdulllah1994

الليل، ولم يكن اسمها الذي اختاره لها الخليفة إلا من قبيل تسمية الشيء بضدهِ للتأكيدِ على حقيقةِ وصفهِ.

في ذاك المساء الذي أتحدث عنه، أمسكت قبيحة بشعرها الأسود اللفيف وجمعته في راحة يدِها ليتدلى فوق كتفها الأيمن. سألت وعيناها تشعان اهتماماً وفطنة:

"هل يروق لكَ الشعرُ الطويل أم القصير؟"

"الطويل" أجابَ الخليفة وهو ينحني فوقها ليستنشقَ صدغيها، وليزرع القبل على طولِ عنقها وكتفيها.

قد لا يكون لهذه الحادثة أيّ علاقة بما سأرويه، قد تكون مجرد محادثةٍ عابرةٍ بينَ جاريةٍ ومولاها، ولكن صاحبي يونس بن حبيب نقل لي عن جاريةٍ كان يتعشقها، أن مولاتها قبيحة بدأت تتعهدُ شعرها بالعنايةِ والرعايةِ منذ ذلك اليوم. كانت تأمر كل صباحٍ بطستٍ مملوءٍ بزيت الزيتون المخلوط بأوراق الياسمين اليابسة والمدقوقة، وكانت تُسلم رأسَها لماشطتها كي تخضّبَ بالزيتِ ناصيتها وقذالَها. لم تكن تستخدم الأمشاط الذهبية والفضية الشائعة في القصر، بل كانت تُؤتى ببناتٍ أبكارٍ لم يبلغنْ، كي يتخللنَ طيّاتِ شعرها بأصابعهن الغضةِ الشبيهة بالموز. كانت العصائب واللفائف والربطات التي تستخدمها باقي الجواري محرمةً عليها، فما كانت تُرى إلا حاسرةَ الرأسِ وقد أرخت شعرها ليتدلى كالأمواجِ فوقَ ظهرها. كانت تتحامى أشعة

Twitter: @abdulllah1994

الشمسِ الحارقة، فلا تخرجُ إلا وقد أمرت بمظلةٍ من الجوخِ الأحمر كي تُرفعَ فوقَ رأسِها. أستطيعُ أن أقولَ بكلِ ثقةٍ إنَّ حياتها كانت تبدأُ وتنتهي وتدورُ حولَ شعرِها.

لا أدري كم استغرق الأمرُ بالتحديد، ولكنَّ جاريةً تُدعى مريم أخبرتني أنّ شعرَ مولاتها قبيحة كان قادراً على تغطيةِ أردافها بعد ثلاثةِ أشهرٍ من وصولها، وأنهُ بدأ يلامس الأرضَ بعدَ سنةٍ تقريباً. لم أجد أحداً قادراً على إخباري عن الطول النهائي الذي وصل إليه شعرُ قبيحة، ولكني سمعت رواياتٍ وقصصاً متباينة تتحدث عن قبيحة وشعرها الطويل الفاحم. حدثني يونس بن حبيب عن عشيقتهِ أنَّ الجواري كنّ يمشينَ بين دهاليزِ القصرِ وهنّ يتحامينَ وطء شعر قبيحة الممتد من مخدعها حتى مجلس الخليفة، وأنَّ قبيحة كانت تمشي أحياناً في القصر وهي عارية، إذ أن شعرها كان يغنيها عن سترِ جسدها بالملابس. كانَ منصورُ الحاجب يقسمُ أنَّ قبيحة لم تكن تنام إلا وقد دلّت شعرها من شرفتها العالية، وكان يضيفُ -مفسّراً كلامهُ- بأنَّ مخدعها كان أضيقَ من أن يتسعَ لكل شعرِها حين تغلقُ الباب. ولقد أخبرني أحدهم عن العجوز التي كانت تعمل ماشطةً لدى قبيحة، أنَّ الخليفةَ كان يخبئ فراشاتٍ من الذهب وسطَ شعرها، وأنهم لا يعثرون على هذه الفراشات إلا بعدَ أسبوعٍ أو أكثر .

كانت خصلاتُ شعرِ قبيحة تزدادُ طولاً كلَ يوم، وكان حبُ

Twitter: @abdulllah1994

الخليفةِ لها يزدادُ توهجاً كل يوم. كانَ الخليفةُ حينَ يحسُّ بالتعبِ يأوي إلى قبيحةَ كي ينامَ فوقَ جسدِها ويتدثرَ بشعرها. هناك، كان يحسُّ بالحبِ والدفءِ والأمان. هناك، كانَ يسمحُ لجسده المتعبِ أن يسترخيَ ويستريحَ وينامَ وسطَ ليلِ قبيحة. كانت تنتظرُ قدومَ مولاها كلَ ليلةٍ في شوق، ولم تكن بحاجةٍ إلى حديثٍ أو إشارة، بل كانت تنتظرهُ فوقَ سريرها وقد أرخت شعرَها بجانبِ السرير وعلى الأرض، وبمجرد أن يدخلَ الخليفة وينامَ بجانبها، كانت تغطيه بالكامل وسط شعرها اللفيفِ الكثّ. كانَ الخليفةُ يخبرها عن الشرّ الذي يتوجسه من قبلِ موسى بن بغا ووصيف التركي، وكان يشكو إليها كثرة المؤامرات التي تلاحقه داخل وخارج القصر، ولقد بلغَ ولعُ الخليفةِ بقبيحة أن أخبرها ذات ليلةٍ أنهُ يهمّ بخلعِ ابنه البكر عن ولاية العهد، وتنصيبِ ابنهما الزبير بدلاً عنه.

و لكن وكما يقولون؛ دوام الحالِ من المحال. ففي إحدى الليالي الباردة دهمَ الجندُ الأتراكُ مجلسَ الخليفةِ من قبلِ بابِ دجلة، وهناكَ اعتوروا الخليفة وندمائه بسيوفهم بقيادة بغا الشرابي وصالح التركي وهارون بن صوارتكين. بعد أن فرغوا من فعلتهم الشنعاء، أخذوا يطوفون في شوارع وأزقة بغداد بسيوفهم المشرعة، وعيونهم تتطايرُ شرراً وتحذيراً في وجه كل من حدثته نفسه بالبكاء لأجل الخليفةِ الراحل. لزمَ العامةُ دورهم في خوفٍ، وأخذوا يسترقون النظرَ خلفَ

Twitter: @abdulllah1994

درفاتِ النوافذِ والشُرفات كي يعرفوا ما ستؤول إليه الأمور.

في تلكَ الليلة، في الرابع من شوالِ من سنة سبعٍ وأربعين ومئتين، رأيتُ بأمٍّ عينيّ كما رأى غيري من عامةِ وخاصةِ أهل بغداد، خصلاتٍ من الشعرِ الأسودِ الفاحم تتطايرُ محمولةً بواسطةِ الريحِ المعولة. أخذتْ هذه الخصلات السوداءُ الكثيفة تنتشرُ ببطءٍ في كل الأزقة وكل الساحات وكل الدهاليز، وأخذت تتسللُ عبرَ النوافذِ وتتعلقُ على الجدران، حتى أصبحت مدينة بغداد بكاملها متشحةً بالسوادِ وكأنها في حدادٍ عام .ثارَ الجندُ الأتراكُ بسببِ هذه الحادثة الغريبة، وأخذوا يتتبعونَ خصلاتِ الشعر التي كانت تندفعُ في كلِ اتجاهٍ من إحدى الشرفاتِ العالية في قصر الخلافة، وعندما انتهوا إلى الغرفةِ ذات الشرفة العالية، وجدوها خاليةً إلا من أكوام الشعر التي تغطي أرضيتها الباردة، ومقصٍ نحاسيٍ كبير يستلقي بجمودٍ فوقَ السرير المهجور.

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

المكتباتي

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

"سوف أكون جريئاً بما فيه الكفاية كي أقترح هذا الحل لتلك المشكلة القديمة: المكتبة كون بلا حدود، ولكنه متكرر".
خورخي لويس بورخيس

كلُ حكايةٍ تبدأ في مكانٍ معين، كلُ حكايةٍ تبدأ في زمانٍ معين، حتى حكايات الخلقِ على تعدد رواياتها وتباين أحداثِها، تبدأ في مكانٍ بكرٍ وزمنٍ وليد. قصتي يا سادة، تبدأ في أكثر الأماكنِ قِدماً، في رحمِ الكون، في المكانِ الأول، في المكتبة.

ما زلتُ أذكر هيئته، ونظرته، وتفاصيل الحديث الذي دار بيني وبينه. كنتُ قارئاً نهماً، أتسللُ كلَ يومٍ بعد صلاة العصر إلى المكتبة الأهلية، كي أستعير منه إحدى القصص العديدة التي كنتُ مولعاً بمطالعتها. كان يعرف كلَ القصص، وكلَ الكتب، وكلَ التفاصيل، وكان حديثه أكثر إمتاعاً من جميع القصص، وجميع الكتب، وجميع التفاصيل. لا أذكر اليوم الذي أتى فيه للعمل كأمينٍ للمكتبة، ولا أتخيل أن المكتبة كانت مفتوحة للناس قبل وصولِه. لقد طالعتُ كتباً كثيرة، وقرأت عن شخصيات غريبة ومتنوعة، إلا أني لم أجد بينَها من هو أشدّ غرابةً وأكثر إمتاعاً من العمّ إبراهيم، أمين المكتبة.

كنتُ أمسكُ في ذلك اليوم مجموعةً قصصية للأديب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس، عندما اشرأبَ برقبته من خلف الجدار

Twitter: @abdulllah1994

العازل وهتف قائلاً:

"كم أحبّ هذا الكاتب".

ابتسمتُ لنفسي، وأنا أقفلُ الكتاب الأصفر الصفحات، لألتفتَ ناحيتَه، استعداداً لسماعِ حديثه الغريب .قلتُ بلطف:

"لم أقرأ له كثيراً بعد، ولكن يبدو أنه يملك أسلوباً ساحراً".

"أسلوباً ساحراً وأفكاراً أشد سحراً، ولكن ليس هذا ما يهم، أنا أحبه لأنه استطاع أن يكتشف سرّ المكتبة، إنه الكاتب الوحيد الذي استطاع أن يحيط بضخامة المكتبة، أن يدرك حقيقتها التي لا تنحصر في المجلدات ولا الكتب ولا الرفوف، كما يعتقد بعض الجهلة".

"و ما هي حقيقة المكتبة؟"

"المكتبة هي الكون".

"المكتبة.. الكون "!

هتفتُ وأنا أحاول أن أبتلعَ النبرة التهكمية التي طفت في آخر جملتي. لم تبد على وجهه المجدور أي علاماتِ امتعاض أو حنق. قام بالالتفافِ بسرعةٍ حولَ الجدار العازل، وقطع المسافة الفاصلة بيني وبينه، ليجلس أمامي مباشرة.

"هذا صحيح، المكتبة هي الكون. هل تعرف ما هي المادة البدائية المكونة للمكتبة؟"

"الجزيئات؟"

Twitter: @abdulllah1994

"لا.. بل الحروف، وهنا تأتي المعجزة. ثمانية وعشرون حرفاً فقط، كانت كافية لخلق الكون".

"ماذا تقصد؟"

"ألا تشعر بالذهول عندما تتذكر أن جميع الكتب الموجودة هنا، تتكون من ثمانية وعشرين حرفاً؟ ضع حرفاً بجانب حرف، وستخلق كلمة. أبدل ترتيب الحرفين، وستخلق كلمة مختلفة. ضع ثلاثة حروف مع بعضها وستخلق اسماً، ضع ثلاثة حروفاً أخرى وستخلق فعلاً، ضع الاسم مع الفعل وستخلق حدثاً، ستروي قصةً، ستنشيء سيرةَ حياةٍ .ثمانية وعشرون حرفاً، بلايين الأسماء، بلايين الأفعال، بلايين البلايين من الاحتمالات والأحداث والقصص. ألا تشعر بضخامة الحدث، بالرهبة، بالضعة، بالضآلة وسط فضاء هذه المكتبة الهائلة، والمكونة من ثمانية وعشرين حرفاً؟"

"الفكرة مذهلة بالتأكيد، ولكنها بعيدة عن التصديق".

"ما البعيد عن التصديق؟ "

"أنَّ العالم يتكون من ثمانية وعشرين حرفاً! أنَّ المادة الأولية للكون هي الحروف"!

"(إنما أمره إذا أرادَ شيئاً أن يقول له كن فيكون)"

"صدق الله العظيم".

"هذه هي الحقيقة، العالم يتكون من حروف. كل شيء يتكون

Twitter: @abdulllah1994

من حروف .هل تريد أن أطلعك على سرٍ آخر؟"

"ما هو؟"

"عندما خلق الله الكون، خلقه على أربعةٍ وعشرين حرفاً، ولكن الشيطان دسَّ أربعةَ حروفٍ من عندِه".

"أنتَ تهذي الآن".

"قل لي في كم يومٍ خلق الله الكون؟"

"في ستة أيام".

"ستة أيام، في كل يومٍ أربعة حروف، والمجموع أربعة وعشرون حرفاً".

"أنتَ تهذي".

"أنا لا أهذي. كم عدد ساعات اليوم؟"

"لن أجيب".

"أربعة وعشرون، على عدد الحروف التي ابتدأ بها الكون".

"و لماذا دسَّ الشيطانُ أربعة حروف من عندِه إن صحَّ ما تزعم؟"

"كي يملأ الكونَ شراً. إن كلَّ جريمةٍ، كل فعل شرٍ، كل حادثة قتلٍ، كل اسم قاتل، كل هذه الأشياء، تتكون من أحد الحروف الشيطانية الأربعة".

"و ما هي هذه الحروف؟"

Twitter: @abdulllah1994

"لا أعلم. لا أحد يعلم. ولكني في طريقي إلى اكتشافها".

"كيف ذلك؟"

"عِدني ألا تخبرَ أحداً".

"لن أخبرَ أحداً، حتى لا يقولوا عني مجنوناً".

"لن تستطيعَ أن تصلَ إلى الحروف الأربعة إلا هنا، في الرحم الأول، في المكتبة".

"في المكتبة؟"

"بالضبط. لقد بدأتُ رحلتي بحثاً عن هذه الحروف الأربعة منذ وصولي هنا. منذ يومي الأول، قمتُ بتصفحِ أول عمل قصصي وقعت عليه يداي، بحثاً عن الشخصية الشريرة فيه، وسجلتها عندي في دفتري الخاص. ثمّ انتقلتُ إلى القصة الثانية، وسجلت اسم بطلها الشرير، لأنتقل إلى الثالثة، وهكذا، كتاباً بعد آخر. هل تدري كم سنة مرت علي وأنا أعمل هنا؟ هل تدري كم كتاباً قرأت؟ كم دفتراً استهلكتُ حتى الآن، لتسجيل اسماء جميع الشخصيات الشريرة التي مررت بها وقرأتُ عنها؟"

"كم؟"

"سبعة دفاترٍ كاملة".

"و لماذا؟ ما الذي تنوي عمله بكل هذه الاسماء؟"

"ألا تفهم؟ إنّ جميع أشكال الشر المتفشية في عالمنا هذا هي نتاج

Twitter: @abdulllah1994

لأحد هذه الحروف الأربعة. إن استطعتُ إحصاء جميع الاسماء الشريرة في جميع الكتب الموجودة هنا، إن استطعتُ أن أضعها في جداول تقيدُ عدد المرات التي تكررَ فيها كل حرفٍ على حدة، سوف أستطيع أن أصل إلى هذه الحروف عندَها... أن أكتشفَها ".

"و ما الذي ستستفيده حينها؟ لن تعدوَ أن تكون أربعة حروفٍ مصمتة"!

"لا أدري، ربما سأعرف منها الاسم الحقيقي للشيطان، ربما سأقع على حقيقة الشر، سأجدُ طريقةً للتخلصِ منه".

رغمَ أني لم أستسغ حديثه، ولا منطقه، إلا أن كلماته بقيت حاضرةً في ذاكرتي وكأني سمعتها بالأمس. أحياناً لا نتذكرُ إلا أكثر الأشياءِ غباءً، أكثر الأشياء استعصاءً على أفهامِنا، وكأننا حين نفهم الشيء، تنعدمُ حاجتنا به، فننساه.

ماتَ العمُّ إبراهيم بعدَ تلكَ الحادثةِ بعشرِ سنوات. ماتَ دونَ أن يكملَ مهمتهُ المجنونة. كنتُ أبحثُ عن وظيفةٍ حينَها، ولم أجد مكاناً أقرب إلى قلبي من المكتبةِ للعملِ فيه .للأمانةِ يجب أن أقولَ إنهم أيضاً لم يجدوا شخصاً أنسب مني للعمل فيها. جلستُ على المكتبِ الذي اعتدتُ أن أرى العمّ إبراهيم جالساً خلفَه، وأخذتُ أقلّب دفاتر الاستعارة والتسجيل والتقييد. كانت الدفاتر السبعة التي تحدثَ عنها العمّ إبراهيم موجودةً في الدرجِ السفليّ، وقد ازدادَ عددُها فأصبحت

Twitter: @abdulllah1994

عشرة. أخذتُ أقلّب الأوراقَ وأقرأ أسماء شخصيات القصص الشريرة، والتي كُتبت بخطٍ دقيقٍ ونحيل. أسماء من كل الجنسيات وبكل اللهجات. كانت مرقمّةً بالتوالي، وبجانب كل اسمٍ عنوان الكتاب ورقم الرفّ الذي يرقد عليه الكتاب. في آخر كل دفتر، كانت هناكَ صفحة لكل حرفٍ من حروف الأبجدية، وقد أخذت الأرقام تتوالى تباعاً لتقيّدَ عدد المرات التي ورد فيها هذا الحرف وسط اسمٍ شرير. هززتُ رأسي بألمٍ وأنا أرى هذا الجهد الضخم أمامي، يموتُ وسطَ ظلمةِ الدرجِ بلا طائل. أعدتُ الدفاتر إلى الدرجّ السفلي، وأقفلتُ عليها مرتين بالمفتاح.

هل يمكنُ للانسان أن يقومَ بعملٍ ما رغمَ إرادته؟ هل يمكنُ له أن يزاولَ شيئاً يتعارضُ مع قناعاته؟ لقد وجدتُ نفسي، وبطريقةٍ آلية، أهرعُ إلى الدرجِ السفلي، بعد إنهائي لأي روايةٍ، كي أقيّد اسم الشخصية الشريرة التي مررتُ بها وقرأتُ عنها. كنتُ أتجنبُ التفكيرَ في طبيعة ما أفعل أول الأمر. ثمَّ بدأت أحاول أن أجدَ لنفسي مبرراً أفهم منه بواعثي الخاصة. هل كنتُ أحاولُ أن أكملَ دفاترَ العمّ إبراهيم كي لا يضيعَ جهده هدراً؟ هل كنتُ أرى في إكمال هذه الدفاتر الغبية جزءاً لا يتجزأ من طبيعة عملي الذي ورثته عن العمّ إبراهيم؟ هل هي الكلمات التي قالها العمّ إبراهيم منذ عشر سنواتٍ، والتي بقيت محفورةً في ذاكرتي؟ لا أدري بالضبط ، لقد بدأت اسماء

Twitter: @abdulllah1994

الشخصيات الشريرة تتزايد بسرعةٍ في دفاتر العمّ إبراهيم، منذ الشهر الأول لوصولي .

كنتُ في أول الأمر، أقرأ القصة أو الرواية بسبب شغفي بالقراءة، ثمّ أعمد إلى الدفاتر المشؤومة لأسجل فيها اسم أكثر الشخصيات شراً .مع الوقت، تغيرت طبيعة قراءتي، صرتُ أقرأُ بحثاً عن هذه الشخصيات الشريرة، صرتُ أنقبُ عنها، أطاردها، أحاول الإيقاع بها .

لقد اكتشفتُ أن الأمر لم يكن بهذه السهولة. من هي الشخصية الشريرة، وما هي القوانين التي تضبط إطلاق هذه الصفة عليها؟ هل هو روبن هود الذي يسرقُ لإطعام الفقراء، أم شريف نوتينجهام الذي يحاول ضبط القانون والإيقاع بهذا اللص الخارج عن العدالة؟ هل هو ليو بي الذي يحاول أن يعيد مجد إمبراطورية هان، أم كاو كاو الذي لا يرى أملاً للبلاد إلا تحت رايته؟ هل هو دارتنيان الذي يقاتل جاهداً ليصبح أحد فرسان الملك لويس الثالث عشر، أم الكاردينال ريشيليو الذي لولاه لأصبحت فرنسا لقمةً سائغة للأعداء؟ كان الأمر أصعب مما توقعت، أصعب مما توقعت بكثير.

رغم ذلك لم أتوقف، لم أتوقف أبداً. لم أكن لأسمحَ لحيرتي بأن تقف عائقاً بيني وبين إتمام مهمة العمّ إبراهيم، الوصول إلى الحروف الأربعة، اكتشاف أساس الشرّ، اسم الشيطان. أخذتُ أقرأ، وأقرأ،

Twitter: @abdulllah1994

وأقرأ، حتى ابيضّت عيناي، ووخطَ الشيبُ حاجبيّ. صرتُ أمكثُ في المكتبةِ الأهلية ساعاتٍ طوال بعد موعد إقفالها، كي أتمكنَ من إنهاء مهمتي، قبلَ أن ينهيَني الموت.

و ها أنا هنا، أكتبُ ما أكتبهُ الآن، رغمَ أني لا يفصلني عن إدارك الحقيقة إلا رفٌ واحد .رفٌ واحدٌ فقط، وستصبح كل الأمور واضحة، كل الأمور سهلة، مسألة حساب بسيطة وسأدركُ أيّ الحروف كان الأكثر تكراراً بين كل هذه الاسماء التي قرأتها. رف واحد فقط يفصلني عن اسم الشيطان، عن الحروف الأربعة، عن طبيعة الشر.

و لكن، ما فائدة جميع هذه الليالي التي أمضيتها، ما فائدة جميع هذه الكتب التي قرأتها، إن أنا قمتُ كأيٍّ غريرٍ بإكمال قراءة كتب الرفِ الأخير بحثاً عن اسم عدوي الأول؟ هل أنا أحتاجُ إلى أن أخلقَ لنفسيَ عدواً بعد كل هذه السنين؟ هل هناك شرٌ في هذه الدنيا، أم أنَّ الشر هو مفهوم إنساني يطلقه على كل ما يتعارض مع مصلحته؟ إنَّ الانسان يشطّ كثيراً حينَ يتساءلُ إن كان حقيقاً باللهِ أن يخلقَ جميع هذه الشرور. الشرُ خلقٌ إنسانيّ، فهمٌ عقلي، ولا تدل صفة الإطلاق التي ألحقها الانسان بوصف الشرِّ إلا على ضآلة منطقه وعظمِ غروره. أنا أكتبُ حكايتي هذه، وأنا على وشكِ أن أستقيل بالغد، كي أترك المكتبةَ وكتبها والرفَّ الأخير إلى الأبد. لا أدري ماذا سأفعل بدفاتر

Twitter: @abdulllah1994

العم إبراهيم! ربما سأحرقها، أو سأتركها في الدرج السفليّ، كي يقعَ عليها أمينُ المكتبة القادم، ليتخلصَ منها بعد أن يُعجزَه فهمُ طبيعتِها. لن أندم في سنيني القادمة على هذا القرار الذي اتخذته. وبالتأكيد، لست نادماً على كل هذه السنين التي أمضيتها بحثاً عن الحروف الأربعة. لقد أكملتُ طريق العمِّ إبراهيم بحثاً عن حقيقةٍ كان ينشدُها، ولقد عثرت على الحقيقةِ قبل أن ينتهيَ بي الطريق.

Twitter: @abdulllah1994

ما ترسمهُ الريحُ وتمحوه

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

"لكنني أريدهم أن يعلموا بأنني مازلت حياً، أنني أمتلك معلفاً ذهبياً ما بينَ شفتيّ، أنني ما زلت الرفيقَ الصغيرَ للريحِ الغربية، أنّني أنا الظلُ الهائلُ لدموعي".
فيدريكو جارسيا لوركا

عندما اختارتْ أمُ راكان اسمَ راكان، كانت تريدُ لهُ أن يحملَ أجمل الأسماءِ كافةً، ولم يخطر ببالها أنهُ سيشبُ ويكبر دونَ أن يسمعَ الاسمَ الذي اختارتهُ له. فبعدِ ستة أشهرٍ من ولادته، وعندما كانت تفلي بأصابعها النحيلة شعراتِ رأسه، لاحظتْ سائلاً أَصْفَرَ غليظاً يخرجُ من أذنيه، وعندما استشارتْ إحدى عجائز القبيلة، أشارت عليها العجوزُ بأن تحشوَ أذنيهِ بالرملِ حتى لا يدخلَ الماءُ إلى رأسِه، ويختلطَ عليهِ عقلُه.

لا تدري أمُ راكان هل أجدت نفعاً نصيحةُ تلك العجوزِ أم لا، فلقد كَبرَ ولدُها وأظهرَ عقلاً راجحاً يزنُ بلداً كاملة، ولكنهُ للأسفِ لم يكن قادراً على أن يسمعَ ولا أن يتحدثَ ليدللَ على ذكائهِ وفطنتِه عندَ الأغراب. يمكنكَ أن تعيشَ أعمىً في الصحراء، ولكنكَ لا تستطيعُ أن تعيشَ أبكم أو أصمَّ. ما الجدوى التي يعلقها عليك رجالُ القبيلةِ إن كنتَ غيرَ قادرٍ على أن تأتمرَ بأوامرِ رئيسها، ولا أن تطربَ لقصائدِ شاعرِها، ولا أن تصرخَ في وجوهِ أعدائِها صرخةً تُدخلُ الرعبَ والفزعَ في قلوبهم؟

Twitter: @abdulllah1994

لذا لم تجد أمُ راكان كبيرَ غضاضةٍ وهي ترى فلذةَ كبدها يخرجُ بالأغنام يومياً كي يرعى بها. كانت صحبة الأغنام التي لا تعقلُ ولا تستطيع الحديث أهونَ لديه من صحبة البشر الذين يعقلون ولكنه لا يستطيع الحديث معهم. كانَ يتفننُ في تشذيب عصاه التي يقودُ بها الغنم، وكان يتخيرها من أجود أنواع شجرات الطلح التي يمتلئ بها الوادي المجاور، وسرعانَ ما اهتدى راكان إلى فائدةٍ جديدة لتلك العصا، حينما اكتشفَ في نفسهِ موهبةَ الرسمِ على الرمال.

لا أدري كيفَ اهتدى راكانُ بالضبطِ لهذه الموهبة، وكيف تعلمها، ولكنهُ سرعانَ ما أخذَ يمارسها باستغراقٍ ويطورها كلَ يوم. كان لا يحتاجُ إلى أغراض أو أدوات لممارستها، فشجراتُ الطلحِ تملأُ الوادي الذي يسكنون بجانبه، أما حبات الرمل، فلقد كانت أكثرَ ما تزخرُ به الصحراء .كانَ أول ما تعلمه هو رسمُ إطارٍ صغيرٍ مستطيلِ الشكل، كي يحصرَ جهودَهُ وضرباتِ عصاه داخلَه، ولقد كان مضطراً لأن يجعل الإطار صغيراً، فالرسمُ على الرمال معناه أن تنحنيَ بظهرِك حتى تصلَ إلى الأرض دونَ أن تضع قدميك أو يديك داخلَ الإطار حتى لا تفسدَ اللوحة. لذلك، كان يرسم إطاره الصغير، ثم يستلقي بجانبهِ على شقه الأيسر حتى يبدأ الرسم. بدأ راكان برسم الغنم والهضاب وشجرات الطلح، وعندما تطوّرت موهبتهُ وازدادت ضربات عصاه خِفة ورشاقة، بدأ يرسم نساء ورجال قبيلته. سرعان ما

Twitter: @abdulllah1994

طوّر راكان موهبته بشكلٍ مُبهر، إذ بدأ يرسم إطاراتٍ أكبر تسمحُ له بإيداع المزيد من التفاصيل داخلَها، ولكي يتغلب على مشكلة آثار الأقدام، صار لا يضع قدميه إلا في مواضع محسوبة، يعزمُ أن يستخدمها لاحقاً ويمرّ عليها بالعصا في تسلسل منطقي رائع.

سرعانَ ما تعرّفَ راكانُ على عقبتين تفسدان عليه لوحاته الرملية .الأولى كانت طبيعة حبات الرمل نفسها، والتي تتساقط في الشقوق والمسامات التي يخلقها بعصاه بشكلٍ سريع ومتتابع، حتى تختفي ملامح الشيء الذي شرع برسمه قبل الفراغِ منه. هذه المشكلة جعلت راكان خبيراً في نوعيات الرمل والتربة التي يقصدها لرسم لوحاته، إذ أنّ من العبث الرسم على الرمال الناعمة التي تتسرب كالماء داخل التجاويف والحفر التي تخلقها عصاه، وكذلك من العبث أن يرسمَ على التربة المروية المتشققة بعد المطر، إذ كانت تتكسرُ بشكلٍ فوضوي وغير محسوب كلما أراد غرز عصاه فيها .

العقبة الثانية اكتشفها في ذلك اليوم الذي رسمَ فيهِ وضحى - ابنة عمه التي كان يتعشقها سراً في صباه-. لقد اختار أجودَ أنواع التربة في ذلك اليوم، وقضى النهارَ كاملاً وهو يضربُ بعصاه بحذرٍ، ويحاول أن يودعَ الرملَ سرَّ عينيها الشهلاوين وأنفها المدبب وابتسامتها الحلوة. عندما فرغَ من لوحته أخذ يتأملها في إعجابٍ وافتتان. لم يسبق لهُ من قبل أن أَطلَعَ على لوحاته أحداً غيره، ولكنه

Twitter: @abdulllah1994

هذه المرة، أحسَّ برغبةٍ شديدة بأن يتعرف إن كانت لوحته قادرةً على أن تدخل في غيره نفس شعور النشوة واللذة اللذين تدخلهما فيه. أخذ راكان يركضُ باتجاهِ المضاربِ والخيام، وعندما رأى ابنة عمهِ أشار إليها في إلحاحٍ كي تتبعه. بدأَ قلبهُ يخفقُ بعنفٍ عندما أحسَّ بالرياح تضربُ على أعقابهِ وتثيرُ الرملَ حوله. التفتَ نحو وضحى التي كانت تعدو وراءه، وأصدر صوتاً عالياً يستحثها فيه على أن تعجّلَ من وقعِ خطاها. عندما وصلا إلى الوادي، كانت الريح قد أخذت وجهَ وضحى مَعَها ومضتْ.

و كما دفعت التربة راكانَ إلى دراستها، كان عليه أن يبدأَ بدراسة الريح. هناك أنواع مختلفة من الرياح، هناك الريح التي تهبُ في مواسم معينة كريح الخماسين، وهناك الريح التي تهبُ من جهات معينة كالصبّا والدَّبور، وهناك الريح التي تهبُ كيف شاءت في كل الأوقات ومن كل الجهات. كان الأمر أشبه بالعبث، مما دفعَ راكانَ إلى أن يؤمنَ بأن هناك شياطين وسعاليَ في الصحراء تنفخ الريح متى شاءت كي تفسد عليه لوحاته. عندما أعجزته معرفة طبيعة الريح، حاول أن يتحوّط منها، وأن يتذرى بهضاب الأرض من عصفها، ولكن كل ذلك لم يجدِ نفعاً. كانت الريحُ تلعبُ وتدورُ وتغير اتجاهاتها كل لحظة، وكأنها تنوي إغاظته واللعبَ على أعصابه. الفائدة الوحيدة التي كان بإمكانه أن يعزوها إلى الريح، أنها كانت تغنيه من أن يمسح الأرض

Twitter: @abdulllah1994

بعد الفراغ من لوحاته التي يتعرض فيها لرجال ونساء القبيلة، ولقد رسم مرةً زعيم قبيلتهم الذي لا يحبه كثيراً، وركزَ عُرجوناً ناتئاً بين فخذيه.

لقد كان الصممُ بمثابةِ نعمةٍ بالنسبة إلى راكان، إذ أن طبيعته الحالمة كانت تضيقُ بمعاشرةِ البشر والجلوس إليهم، ولكن إن كان للصممِ عيبٌ رئيسي، فهو أنهُ يجعل الأخبار لا تصلكَ إلا متأخرةً، إلا متأخرةً للغاية. ففي إحدى الصباحات الحارّة، لمحَ راكانُ رجلاً وهودجاً غريبين يقفانِ أمامَ خيامِ عمهِ ضاري، وعندما استفهمَ من أمهِ عن أمرِهما، وضعت سبابتها تحتَ أذنها وسحبتها حتى وصلت إلى ذقنها -مما يعني أنها تتحدث عن وضحى-، ثمَّ كوّرت يدها اليسرى، وأدخلت بنصرَها الأيمن في يدها اليسرى، وكأنها تلبسهُ خاتماً .

حلَّ الخبرُ كالصاعقةِ على راكان، وتمالك نفسه حتى لا يتهاوى أمام والدته. استجمعَ كلَ قواه في ساقيه المرتعشتين، وأخذ يمشي بخطى متهالكة قاصداً الموضع الواقع وراء الخيام حيث لا يراه أحد. عندما خلا بنفسهِ هناك، أخذ يجري بكل ما بقي في ساقيه من قوةٍ حتى غاب عن الأنظار. كانت الريحُ تشتدُ في أثره، وكأنها تسابقه نحو الموضع الذي يقصده. لم يتوقف حتى وصلَ إلى وادي الطلحِ، وعندما توقف، كانت الدموعُ تسيلُ دِفاقاً فوقَ خديه. أحسَّ راكانُ بغصةٍ هائلةٍ تترقرقُ في حلقه، وبفقدٍ هائلٍ يملأُ روحَه، ولكنَّ أكثر ما أفزعهُ هو هذا

Twitter: @abdulllah1994

الضعف الذي لم يعهدهُ في نفسِه .

وضحى تزوجتْ! تَزَوجَها الرجلُ الغريب الذي لم يره في المضارب من قبل، وسيمضي بها إلى قبيلته وأهله، ولن يراها أبداً بعد الآن .لن يرى وجهها الحبيب وعيونها الواسعة بعد الآن. لن يرى ابتسامتها الحلوة وأنفها الأشمّ. سوف تمضي، وسينساها، وستسرق الأيامُ ذكراها كما تسرقُ الريحُ لوحاته الرملية. كانت سعالي الصحراء تنفخُ الرياحَ بقوةٍ وتنثرُ الرمالَ فوقَ وجهه، وكأنها تسخرُ منه.

قفزَ راكان إلى أقرب شجرةٍ طلح منه، وسحب أحد أغصانها حتى كسره، وأزال الأشواك الناتئة بسرعةٍ تجرّحت معها يداه. كانت الريحُ تشتدُ من حولهِ وتنثر الرملَ والغبار. انحنى راكان على الرمل وبدأ يرسمُ بهوسٍ وبسرعةٍ وجهَ وضحى. لم يرسم إطاراتٍ هذه المرة. كان عقله مشغولاً عن الإطارات بوضحى، وكانت الريح تعصفُ بشدةٍ لا تسمحُ له بأن يهتم بأمور شكليةٍ مثل هذه. ولكنَّ رسمَ أي شيء تحتَ عصفِ هذه الريح المسعورة كانَ أشبه بالمستحيل. كان كلما حفر خطاً على الرمال، أزالتهُ الريحُ العاصفة، وكانت الدموعُ المختلطةُ بالرملِ تملأُ عينيه وتعيقهُ عن الرؤية. لكنه لم يتوقف. كان يرسمُ ويرسمُ ويرسم، حتى حرثَ الوادي خطوطاً تحاولُ أن تتشابكَ لتحفظ له وجه حبيبتهِ دونَ جدوى. في الأخير، سقطَ راكان متهالكاً بعدَ أربعِ

Twitter: @abdulllah1994

أو خمس ساعات، وأخلدَ للنوم على إحدى التلات المرتفعة المُطِلة على الوادي.

عندما أفاق، كانت الرياح قد خفّت حتى لم يكد يشعر بها، وكانت الشمسُ الغاربة تنثرُ أشعتها الحمراء على طول الوادي. تطلعَ راكان من تلتهِ المرتفعة إلى الأسفل، وأخذَ يتتبعُ آثارَ ضربات عصاه التي أبقت الريحُ بعضاً منها، بعد أن لعبتْ بها وغيرت في اتجاهاتها. كادَ قلبه أن يتوقف عندما وصل بعينيه إلى الجانب الجنوبي من الوادي، وعندما تأكدَ من حقيقةِ ما يراه، طفرتْ دمعةٌ أخيرةٌ من عينهِ أحسَّ بعدَها بالطمأنينةِ والراحة. كان وجهُ وضحى مبسوطاً على مساحةٍ هائلةٍ من الرمال. كان مرسوماً بتفاصيله الدقيقة، وملامحهِ المُحببة، وجماله الهادئ. هذه هي وضحى بعينيها الشهلاوين، وأنفها الأشمّ، وابتسامتها الحلوة. هذه هي وضحى كما عرفها وكما سيتذكرها دائماً. ولكنَّ أكثرَ ما أثار انتباه راكان ودفع بالدمعة الأخيرة فوق خدِه، كانت عنقها الطويلة التي رُسمت بطريقةٍ غريبة، وكأنها تلتفتُ إلى الوراء، قبل أن تمضي بعيداً مع الريح.

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

مقلع طمية

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

لا أستطيعُ أن أصفَ وجههُ بالكامل، ولكني على الأقل أستطيعُ أن أصفَ المساحةَ المستطيلةَ التي تمكنتُ أن أراها منه عندما أزلتُ الصخرةَ السوداء من مقلعِ الحجارة. كيفَ علِقَ هناك، وكيف أمكنهُ أن يعيشَ طوالَ ذلك الوقت تحتَ الصخور؟ سؤالان لا أعتقدُ أنّ بإمكاني أن أهتديَ إلى إجابةٍ عليهما حتى من مكاني الحالي. كلُ ما كنتُ أنوي فعلَهُ حينما أزلتُ الصخرةَ من مكانِها هوَ أن أستخدمَها في ركزِ أطنابِ خيمتي وسطَ الرمل. لم يخطرْ ببالي أبداً أنني سأجدُ كائناً عالقاً وحياً تحتَ كومةِ الصخور .كان شعوري وأنا أشاهدُ بؤبؤَ عينهِ الأسود ينبثقُ إلى الحياة، ويتحركُ سريعاً في كل اتجاه، مزيجاً من التحرزِ والدهشةِ والهلع.

هل قلتُ إن الصخرةَ التي أزلتها مستطيلة الشكل؟ هكذا كانت، أو ربما كانت بيضاوية في شكلها، لا يهم! المهم أنّ الفجوة التي تركتها بين الصخور كانت عمودية ومستطيلة. هذه النقطة أساسية ومهمة، فمن خلال تلك الفجوة العمودية والمستطيلة لمحتُ لونَ وجههِ المائل للخضرة، وكأنه خبزٌ متعطِن. لولا حركة عينه السريعة والمرعبة، لحكمتُ جازماً أنهُ ميت. لم يكن بوسعي أن أشاهدَ من خلالِ الكوّةِ المستطيلة سوى عينه اليسرى وجزءاً من جبهته المتغضنةِ الخضراء. كانت الفجوة تمتدُ طولياً بمقدار شبرٍ ونصف على الأرجح، بينما عرضها لا يتجاوز العشر سنتيمترات، ورغم ذلك، لم أستطع أن أرى

Twitter: @abdulllah1994

من خلالها غيرَ جزءٍ يسير من وجههِ الغريب العالق تحتَ الصخور. أكثر ما أدهشني هو حركةُ عينهِ السريعة التي كانت تضربُ في كل الاتجاهات على غير هدى، وكأنها تبحثُ عن شيء معين. أخذتُ أحدقُ ناحيةَ العين مباشرة، وكأني أريدُ لها أن تتوقفَ حينَ تلمح وجودي أمامَها، ولكني -و كما يظهر-، لم أكن أملكُ أهميةً بالنسبة إليها تفوقُ أهميةَ الصحراء والرمال والهواء والصخور! كنتُ أبحثُ في أعماقِ تلك العين عن نظرةِ ألمٍ أو نداءٍ أو استجداء، فذلكَ ما يُفترضُ أن أجدَه في أعماقِ عين من علق لمدةٍ تحتَ الصخور، ولكني لم أجد فيها سوى تلك النظرةَ الحيوانية المجنونة، والمشغولة بتفحصِ كل ما تجدهُ أمامها دونَ أن تدركَه أو تعقلَه. كان ذلك أكثرَ ما أصابني بالضيقِ وعدم الراحة، أو بصفة أصح بالقرفِ والاشمئزاز، إذ لا يجدرُ بشخصٍ أن يعلقَ هنا في هذا المكان القصيّ تحتَ الصخور، ولو صحَّ ذلك وكان عالقاً حقيقةً، لا يجدرُ بعينهِ أن تمتلك تلك النظرة البدائية الحيوانية التي تتفحصُ وتتأمل، بدلَ أن تستعطفَ وتستجدي. لا يهمني إن كانت الأعذار التي أسوقها سائغةً أم لا، فلقد أرجعتُ الصخرةَ إلى مكانها، ورجعتُ على أعقابي إلى المخيم، وأنا أحاولُ أن أطردَ تلك النظرةَ الحيوانية من مخيلتي.

لم أستطعْ أن أنامَ تلك الليلة، ولو كنتَ تظنُ أن ذلك راجعٌ إلى إحساسٍ أخلاقي أو شعورٍ بالندمِ فأنتَ مخطئٌ تماماً. كنتُ أفكرُ في تلك

Twitter: @abdulllah1994

النظرة البدائية، في ذاك الرجل -إن كان رجلاً- العالقِ بين الصخور، في تلك الفجوة المستطيلة المطلة على شيء مجهول تماماً بالنسبة لي. ربما هو حيوانٌ من فصيلةٍ لا أعرفها يتخذُ مسكناً لهُ بين الصخور! ربما هو رجلٌ أرادَ أن يستكشفَ أرجاءِ المقلعِ، وعلقَ حديثاً تحتَ الصخور! ربما كنتُ أتوهمُ شيئاً غيرَ موجودٍ حقيقةً، وهذا أكثر ما أصابني بالفزعِ وعدم الراحة. يستحيلُ لأي حيوانٍ أن يمتلك تلك النظرة، كما أن البشر البالغين لا ينقلون عيونهم بهذه السرعة وهذا الجنون، وخصوصاً إذا ما كانوا عالقينَ تحت الصخور. كانت النظرة أشبه بنظراتٍ طفلٍ رضيعٍ يتعرفُ على العالمِ لأول مرة.

وجدتُ نفسي أنهضُ من مرقدي، وأتلمس طريقي نحوَ ثيابي ونعليّ وسط الليل. أمسكتُ بالكشاف الكهربائي بيدي اليمنى، وحرصتُ أن أتسللَ من المخيم دونَ أن أوقظَ أحداً من أصحابي. كانت الظلمة الحالكة تتطايرُ كالغيمِ وسط الوادي السحيق. دفعتُ بإصبعي قابسَ الكشاف الكهربائي، وأخذتُ أتبعُ خيوطَ الضوء الممتدة نحوَ الأمام. كنتُ أظنُ أن الأمر سيستغرقَ وقتاً طويلاً من البحث، ولكني وجدتُ نفسي أقفُ على نفسِ البقعةِ التي وقفتُ عليها أول النهار في أقل من عشر دقائق .كانت الصخرةُ السوداء المستطيلة ترقدُ في مكانها حيثُ تركتها، وكأنها تنتظرُ رجوعي. أغلقتُ قابس الكشاف الكهربائي، ومددتُ يدي وسط الظلمة لأقبضَ على تلك

Twitter: @abdulllah1994

الصخرة. عندما سحبتها لم يحدث شيء! لم أسمعْ صوتَ نَفَسٍ أو حركة. ابتلعتُ ريقي، ووجهتُ لمبةَ الكشاف جهة الفجوة. عندما أضأتُ النور رأيتها؛ نفسَ العين كانت ترقد هناك. لم يستغرق المشهد أكثر من جزءٍ من الثانية. بمجردِ أن سلّطتُ عليها الضوء تضيّقَ بؤبؤها البشع، لتسرعَ بإغلاق جفنِها فوقَه. أحسستُ بالقرف والاشمئزاز. كان أكثر من نصف رموشها متساقطاً. أزحتُ حزمةَ الضوء عنها لثوانٍ، مما سمحَ لها بالتجرؤ على فتح جفنها كما يظهر، إذ إني بمجردِ أن أرجعتُ حزمةَ الضوءِ إليها، قامَ بؤبؤها بالتضيق مرة أخرى، لتسرع بإغلاق جفنَها فوقَه. إذن هي لا تنام! أو هذا الكائن العالقُ تحتَ الصخور -و الذي يملك هذه العين- لا ينام. يظهرُ أنه جسدَه مثقلٌ بالصخور من جميع أطرافه، إذ إنّ نفس البقعة التي رأيتها من وجهه عبر الكوة في الصباح ما زالت هي نفسها، مما يعني أنه عالقٌ تماماً ودونَ أمل. كانت عينه اليسرى هي كل ما أستطيع النظرَ إليهِ من جسمه. عندما خطرَ ببالي أنَ عينه اليمنى تتحركُ بنفس الكيفية ونفس الوقت مع عينه اليسرى تحت الصخور، أحسستُ بالامتعاض والفزع . أرجعتُ الصخرة إلى مكانِها، واستدرتُ لأرجعَ إلى دفء مرقدي وسطَ المُخيم.

لا أحتاجُ أن أقولَ أنّ زيارة هذه العين العالقة تحت الصخور أصبحت أمراً شبهَ يومي بالنسبة لي، بل إني أحياناً أبدأُ يومي وأختمهُ

Twitter: @abdulllah1994

بمشاهدةِ تلك العين وإزاحة الصخرة عنها وتفحصِها. من حسن الحظ أن أعمال البحثِ والتنقيب التي يقوم بها أصحابي تتركزُ بعيداً عن موضع العين في شمال المقلع، فلقد كنا ننتمي إلى بعثةٍ استكشافية تنتمي إلى كلية العلوم الجيوفيزيائية في جامعة الملك سعود، وكانت مهمتنا تتلخصُ في تحديدِ أعمار الصخور في هذا المقلع، ومقارنتها بأعمار صخورِ حرة كشب، سعياً إلى إثبات أسطورةٍ قديمة، وكأنّ العلمَ الجديدَ لا يستطيعُ التخلصَ من عوالقِ الأساطير حتى في ردهاتِ البحث الأكاديمي. لم يخطرْ ببالي أبداً أنني سأجدُ شيئاً أشدّ غموضاً وأكثر إيغالاً في قِدمه، عالقاً تحتَ الصخور .

مرَّ على وصولِنا أكثر من أسبوع، ولم يعد بإمكاني أن أخبرَ أحداً من أصحابي عن الرجل العالق بين الصخور، إذ إن أولَ سؤالٍ سيوجهُ لي حينَ يتمُ اقتلاعهُ منها: لماذا لم تقم بتخليصهِ منذ اليوم الأول لعثورِكَ عليه؟ لن يستطيعوا أن يفهموا شعورَ القرفِ والتحرزِ وعدم اليقين. كلُ ما سيفكرون به هو أني تركتُ رجلاً حياً عالقاً تحتَ الصخور لمدةِ أسبوع.

في اليومِ الثامن من وصولنا للمقلع، وعندما أنهيتُ صلاةَ الجمعة وتوجهتُ إلى موضعِ العين في غفلةٍ من أصحابي، قمتُ بإزاحة الصخرة، ووجدتُ العينُ حيثُ تركتها ليلةَ أمس، وهي تتطلعُ وتحدق، وتضربُ في كلِ اتجاه دون جدوى وعلى غير هدى. أخذتُ أتطلعُ

Twitter: @abdulllah1994

إليها في سهوم، وكأن حركتها التلقائية والسريعة كفيلة بتنويمي مغناطيسياً. فجأة، ومن وراء غِلالة الخدر والنعاس، توقفت العين عن الحركة، وأخذتْ تتطلعُ نحوَ عيني مباشرة، أخذتْ تتطلعُ نحوي، ترمقني، تتأملني .رجعتُ إلى الوراء في فزعٍ ورعب، وعثرت قدمي بإحدى الأحجار فسقطتُ على قفاي. عندما سقطت، تحركت العين قليلاً نحو الأسفل، وكأنها تتابعني في سقوطي، وأخذت تتأملني باحتقار وأنا أستلقي على الأرض وأنظرُ نحوَها في ذعر. إنها تنظر! إنها تعقل ! إنها تعرفني، تعرفني! أصبتُ بهلعٍ شديد، وأخذتُ أعدو جهةَ المخيم وأنا لا ألوي التفاتا، دون أن أتكلفَ عناءَ إرجاع الصخرةِ إلى مكانها.

أحسستُ بالخزي والعار وأنا أتقلبُ على مرقدي طوال الليل. ما الذي دهاني؟ كيف يمكنُ لعينٍ عاجزة أن تصيبني بكل هذا الرعب؟ أن تدفعني إلى الركض كالأطفال نحو أصحابي؟ حمدتُ الله أن أحداً من أصحابي لم يرني وأنا أركض بهذه الهيئة الذليلة والمفزوعة، والتي من الممكنِ أن تجعلَني أضحوكةً للجامعة لمدة سنةٍ كاملة. عقدتُ العزمَ على أن أرجعَ في الصباح التالي إلى العين، أن أتطلعَ نحوَها مباشرة، أن أبادلها النظرات في تحدٍ واحتقار. خرجتُ من خيمتي بعد أن انقشعَ الهزيع والظلام، وأخذت أسيرُ بين الصخور حتى وصلت إلى حافةِ المقلع التي ترقدُ تحتَها العين. كانت الصخرة السوداء ملقاةً على الأرض الترابية، بينما كانت الكوة السوداء فارغةً كبؤبؤ مجوف.

Twitter: @abdulllah1994

اقتربتُ في فزعٍ نحو الفجوة المستطيلة، وأخذتُ أنظرُ من خلالها إلى لا شيء. لم تكن العين السوداء ولا الوجه الأخضر في المكان الذي تركتهما فيه. لقد اختفى، اختفت! الكائن العالقُ تحت الصخور لم يعدْ عالقاً بعد الآن. أحسست بالضعف يسري في أطرافي، وبمغصٍ كريهٍ تعود أن ينتابني كلما أحسستُ بالخوف. سوفَ يخبرُ الجميعَ عني! سوف يخبرهم أنني تركتهُ لأكثر من أسبوع عالقاً بين الصخور دونَ أن أحركَ بنتَ شفة. ربما سيداهمُ خيمتي ويخنقُ أنفاسي وسط النوم! أخذت جميع هذه الأفكار المزعجة تتبعني وتطاردني وأنا أمشي سريعاً جهة المخيم. توجهتُ إلى رئيس البعثة الاستكشافية، وأخذتُ أرددُ بصوتٍ مزعوجٍ أنَّ علي الانصراف إلى الرياض في الغد. تطلعَ رئيسُ البعثة نحوي في استغرابٍ، وعندما سألني عن السبب أخبرتهُ أن أهلي اتصلوا بي عندما كنتُ أتسوق للبعثة من أم الدوم، وأنهم أخبروني بإصابة جدي بجلطة قلبية. أبدى رئيس البعثة انزعاجه وتأسفه، وأخبرني أن بإمكاني الرجوع متى ما رغبت بمعيةِ أحدٍ من زملائي .

أمضيتُ اليومَ كله وأنا أحزم أغراضي وأجمع دفاتري. كنتُ أجري بين الخيام وأنا أتطلع في أعقابي وحوالي، وكأنَّ مساً من الشيطان أصابني. أحسستُ ببعض الارتياح عندما فرغتُ من حزم متاعي والإعداد لرحلة الغد. سوف أركب السيارة في الغد، وأترك المقلع والصخور والرجل العالق تحتها دون عودة. ولكن فكرةً واحدةً

Twitter: @abdulllah1994

ظلت عالقةً في ذهني طوال الليل. كيف أمكن لذاك الكائن أو ذاك الرجل أن يحيا لأكثر من أسبوعٍ كامل وهو عالقٌ تحتَ الصخور؟ كيف أمكنه أن يشرب، أن يأكل، أن يتغوط؟ كان السؤال عالقاً في مؤخرة رأسي منذ اليوم الأول لوصولي للمقلع، ولكنه أخذ يفرضُ نفسَه الآن بشكلٍ ملح، وخصوصاً بعد أن خرجَ الكائنُ من مكمنِه وتخلصَ من حبسِه .

قد أبدو مجنوناً بالنسبة إليك، ولكني لا أحب أن أغادرَ مكاناً أو أن أنصرفَ من أمرٍ دون أن أنهيَه، حتى لا أظلَّ طوال عمري أتطلع إلى الوراء وأردد بيني وبين نفسي: ماذا لو؟ قفزتُ من مرقدي وقد عقدتُ عزمي وشددتُ من أزري، وتناولتُ الكشاف الكهربائي لأتسللَ عبر المخيم. كانت أكوام الظلام كما عهدتها تسبحُ في أرجاء الوادي. أخذتُ أنقّل حزمة الضوء في احترازٍ كي لا أُفاجأَ بشيء يداهمني وسط الظلمة .توجهتُ إلى موضع الفجوة المستطيلة، وسلطتُ عليها حزمةَ الضوء وأنا أنظرُ من خلالِها. كانت فارغةً وصامتةً ومظلمة. أمسكتُ بمجموعة الصخور المحيطة بها، وأخذتُ أقتلعها واحدةً واحدة، حتى خلقتُ تجويفاً كبيراً نسبياً، يسمحُ لجسمي بالنفاذِ إلى الفوهة المظلمة تحت الصخور. كان عليّ أن أدخل ذراعي اليمني أولاً، ومن ثمَّ أتبعُها بكتفي وجذعي، حتى استطعتُ أن أحشرَ جسمي تحت الصخور الباردة والثقيلة وأنا أستلقي بظهري على

Twitter: @abdulllah1994

الأرض. كانت يدي اليسرى المُمسكة بالكشاف الكهربائي هي آخر ما تبقى من جسدي خارج الفتحة المظلمة. عندما سحبتُ يدي نحو جسدي، استقام محورُ الكشاف الكهربائي ليسلطَ حزمته الضوئية إلى الأمام مباشرة، حيثُ كان الرجلُ الغريب صاحب العين المفزعة يتطلعُ نحوي بعينيه الإثنتين وسطَ الظلمة. صحتُ في فزعٍ بصوتٍ عالٍ وأنا أحاولُ الخروج من الفتحة الصغيرة التي حشرتُ نفسي وسطَها. امتدتْ يدُ الرجل اليمنى لتثبتني مكاني، بينما أخذت يدُه اليسرى تلقي الصخور فوقي كي تسدَّ الفتحة. أخذتُ أتطلعُ في فزعٍ وأنا أحاولُ أن أحشرَ عيني في الفتحة الضيقة المتشكلة بين الصخور. كان القمرُ يعلو السماء، وكأنهُ وجهٌ نوراني يطلُ من أعلى .ارتفعتْ يدُ الرجلِ اليسرى إلى الأعلى وهي تحملُ الصخرة، حتى أصبحت الصخرة في علوٍ يناهزُ علوَ القمر، ثمَّ أخذت تنحدرُ ببطءٍ في اتجاهي، لتقفلَ الكوةَ العامودية المستطيلة، قاتلةً بذلك آخرَ بصيصٍ من النور.

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

حكايةُ الصبيِّ
الذي استطاعَ أَنْ يَرى النَوم

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

هاكَ يدي، وتعالَ معي.. فسوفَ آخذكَ إلى مكانٍ لم ترَه من قبل. سوفَ أذهبُ معكَ إلى بغداد- حاضرةِ الخلافة- لأجوسَ بكَ أزّقتها العتيقةَ حتى نصلَ إلى ذاك البيمارستان الضخم الذي يقومُ على الضفةِ الشرقية من نهرِ دجلةَ الأزرق.

هل ترى ذاك الرجلَ المربوعَ القامةِ ذا اللحيةِ القصيرةِ والنظرةِ الساهمة؟ ذاك الذي يمشي بخطىً متعبة داخل البيمارستان؟ هل عرفته؟ إنه الشيخُ الرئيس حجةُ الطبِ أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا. أنا متأكدٌ أنكّ سمعتَ بهِ من قبل. هو لا يزالُ في منتصفِ العمرِ -آنذاك-، ولكنّ صيته قد شاعَ وذاع، حتى ترأسَ بيمارستانَ بغدادَ الكبير، وأصبحَ قبلةً لطلاب الطبِ والمرضى المكروبين.

لم أمشِ بك كل هذه المسافة، وأعبر بك حدودَ المعقولِ واللامعقول لمجردِ أن ترى الشيخ الرئيسَ في شبابهِ في بغداد، وإنما أريدُ أن أريكَ ذاك الصبيَّ الصغير الذي ألتقى به ابنُ سينا ذاتَ صباحٍ وتحدثَ معَه .اتبعني..

-١-

توقفَ ابنُ سينا أمام غرفةِ العزل .داخلَ الغرفة، كانتْ ترقدُ امرأةٌ عليلة من أشرافِ مكةَ مصابةٌ بالسّل. مضى على وصولِ المرأةِ

Twitter: @abdulllah1994

شهرٌ كامل، حينما أتى بها أخوها وتركها داخلَ البيمارستان برفقةِ ابنها الصغير، وقفلَ راجعاً إلى الحجاز. كانت آنذاك تعاني من حمىً مرتفعة وسعالٍ شديدٍ متقطّع. أما الآن، فقد ذبلَ جسمُها وشحُب وجهها، واصطبغ البلغمُ الخارجُ من فمِها بحمرةٍ قانية. قرعَ ابنُ سينا الباب برفقٍ ثمَ دخل.

"السلام عليكِ يا أمَ مَعن".

"وعليكَ السلام ورحمة الله يا بنّي" أجابت بصوتٍ مبحوحٍ متقطّع .

ابتسم ابنُ سينا بود، وهو يلحظُ صوتَ سعالِها العنيف والدمَ الذي يصبغ طرفَ حشيتِها المفروشة في أقصى الغرفة.

"كيف كانت ليلتُك؟" سألها ابنُ سينا، منحنياً فوقَ معصمِها ليتحسسَ نبضَه.

"كسابقاتِها.. نوباتٌ من السعالِ الذي لا يتوقف".

"هل استطعتِ النوم؟"

"نمتُ والحمدلله. ولكني أريد أن أشتكي ولدي إليك".

التفتَ ابنُ سينا ناحيةَ الصبي الجالسِ في الطرف الآخر من الغرفة، والذي كان يصغي إلى حديثِهما بإنصاتٍ واهتمامٍ واضحين. كان الصبيُ لا يتجاوز الثامنة من عمرِه، ويلبسُ ثوباً أزرق فضفاضاً. ابتسمَ ابنُ سينا وسأله:

Twitter: @abdulllah1994

"لماذا تريدُ أمُك أن تشتكيكَ يا مَعن؟"

هزَّ الصبي كتفيه بعجبٍ، وابتسمَ ابتسامةً حلوةً لم يملك ابنُ سينا إلا أن يردّها بمثلِها. ارتفعَ صوتُ الأم من وراءِ ابن سينا:

"لأنه لا ينام."

"لا ينام! حسبتُ أنّ أمكَ هي التي لا تستطيع أن تنامَ بسبب سعالِها وليس أنت! ما الذي يمنعكَ من النومِ يا معن؟ هل أنت قلقٌ على أمك؟"

ضحكت الأمُ ضحكةً سرعانَ ما قطعتها نوبةٌ طويلةٌ من السعال الشديد.

"ربما هو قلِقٌ -رغمَ أنَّ صحتي جيدة ولا تستدعي القلقَ- ولكنَّ هذا ليسَ هوَ السببُ الحقيقي الذي يمنعه من النوم".

"ما هو السببُ إذن؟"

"ألا تخبرُ الطبيبَ عن سببِ امتناعِك عن النومِ يا معن؟"

"أريدُ أن أرى النوم." أجاب الفتى الصغير منتصباً على قدميه.

"ترى النوم"!

هزَّ الفتى رأسهُ بحماس.

"اعذر جهلي، ولكني لم أفهم تماماً.. كيفَ تريدُ أن ترى النوم؟"

"هل تعرف أيها الطبيبُ كيف ننام؟ "

عقدَ ابنُ سينا يديه وراءَ ظهرِه وتغضّنت جبهتهُ بالتجاعيدِ التي

Twitter: @abdulllah1994

تعلوها حينما يثيرُ أمرٌ اهتمامَه.

"لا أعرف. هناكَ كثيرٌ من العلماءِ والفلاسفة تساءلوا عن سرِ النوم دونَ أن يخلصوا إلى إجابة"!

"ذلكَ أنهم لم يصبروا حتى يروا النوم." همسَ الصبي بحماسةٍ وكأنه يفضي بسرٍ مقدس.

"لا زلتُ لا أفهم"!

"النومُ يأتي إلينا بخطىً خفيفة. يتسللُ برشاقةٍ دونَ أن يصدرَ صوتاً. بمجردِ أن يدهمَ الدارَ أو يقفزَ عبرَ النافذةِ نحسُّ بنعاسٍ شديدٍ ونغمضُ أعيننا حتى قبلَ أن يدخلَ غرفتَنا. لو أنَّ أحداً استطاعَ أن يقاومَ النعاس، لو أنهُ بقيَ مفتوحَ العينين في تلكَ اللحظةِ التي يغمضُ الباقونَ فيها أعيُنَهم، لرأى النومَ يتسلل وسطَ الغرفة".

"وهل سبقَ لكَ أن رأيتَ النوم؟"

"لا.. فهوَ في كلِ ليلةٍ يهزمني، ويرسلني في سباتٍ عميق قبلَ أن أراه. ولكن لا بدَّ لي أن أهزمَه".

ابتسمَ ابنُ سينا بتعجبٍ وأخذَ يدعكُ جبينَه المتغضِن.

"لا تستهن به. فكما يضعُ الأحلامَ في عقولِنا، هو يستطيعُ أن يقرأ أفكارنا. لا بدَّ أنه علمَ بنيتِك المبيّتة، فصارَ يتريثُ عندَ بابِ غرفتِك حتى يسمعَ شخيرَك قبلَ أن يدخل".

اتسعت عينا الصبيّ في دهشةٍ وهتفَ قائلاً:

Twitter: @abdulllah1994

"لم يخطر هذا الشيء ببالي مسبقاً. سوفَ أخدعهُ هذه الليلة وأشخر متظاهراً بالنومِ حتى يدخل".

صرخت الأمُ في احتجاج:

"ما هذا يا أبا عليّ؟ قد اشتكيتُ إليك لتساعدَني ضدَه، فإذا بكَ تشاركُه جنونَه"!

"ولدكِ نابغةٌ يا أمَ معن. حقَّ لكِ أن تفخري به".

ابتسمت الأمُ بفخرٍ وتناولت العقار الذي أعدهُ لها ابن سينا من مزيجِ العسلِ والورد.

-٢-

استيقظَ ابنُ سينا على صوتِ طرقٍ عنيفٍ يهزُّ بابَه. قفزَ سريعاً من مرقدِه وتناولَ جلبابَه ولبسَه. فتحَ ابنُ سينا البابَ ليجدَ عبدَالرحمنِ -أحد طلابِه- يلهثُ خلفَ البابِ وصدرُه الهزيلُ يعلو ويهبط. وضع ابنُ سينا يدَه اليمنى على كتفِ الشابِ المذعورِ وسأله:

"ماذا جرى؟"

أجابَ عبدُالرحمن بنفسٍ متقطع:

"المرأة الحجازيةُ المصابةُ بالسل تلفظُ أنفاسَها".

جرى ابنُ سينا بجلبابِه الواسعِ ورأسِه المكشوف بأقصى سرعتِه قاصداً غرفةَ العزل. لا.. ليسَ أم معن، ليسَ أم معن. كيفَ تموتُ غريبةً، بعيدةً عن أهلِها، وحيدةً إلا من ولدِها الصغير؟ والولد.. ماذا

Twitter: @abdulllah1994

عن الولد؟

حاولَ ابنُ سينا طردَ هذه الأفكار، والتي طالما حذرهُ أساتذتهُ منها حينما تعلمَ في بخارى. لا تفكر في شخصِ المريض أو مقدارِ حزنِك لأجله. فكر في جسدِه، نبضِ قلبه، سرعةِ أنفاسِه..

"ما الذي جرى بالضبط؟" سأل ابنُ سينا عبدَالرحمن الذي كان يعدو بجواره.

"أفقنا على صوتِ سعالٍ شديد، وإذا بأمِ معنٍ تلفظُ كميةً هائلةً من الدم ثم تفقد الوعي".

وصلَ ابنُ سينا إلى الغرفة المشرعةِ الباب، ليفاجأَ بالمنظرِ البشعِ أمامَه. كانت بحيرةٌ من الدمِ اللزجِ تملأ أرضية الغرفة وقد أخذت تسبحُ فوقَها قطعٌ سوداءَ من الدمِ المتخثر. وسطَ بحيرةِ الدم، كانت أمُ معن ترقد ممددةً بلا حراك. صرخَ ابن سينا في عبدالرحمن:

"ارفع رجليها إلى الأعلى".

خاضَ عبدُالرحمن بحذرٍ وسطَ الدم ليرفعَ رجلي المرأة الباردتين. انحنى ابنُ سينا فوقَها، ووضعَ اصبعيه الوسطى والسبابة فوقَ عنقِها. لم يكن هناكَ نبض .

تناولَ ابنُ سينا خرقةً مبللة من وعاءِ ماءٍ قريب، ومسحَ وجهها. كانت عيناها الجاحظتان تنظران إلى الأعلى. أغلقَ ابنُ سينا العينين، فيما أنزل عبدُالرحمن قدمي المرأة المتوفاة في رفقٍ وحِرص .أغمضَ ابنُ سينا عينيه في ألمٍ وأخذ نفساً عميقاً. عندَها تذكرَ الشيء الذي غفلَ عنه

Twitter: @abdulllah1994

منذ دخولِه. نظر إلى الركنِ البعيد في أقصى الغرفة، ليجدَ الصبي الصغيرَ منزوياً هناك، وقد أخذ ينظر إلى الدمِ الأسودِ وعيناهُ يملأهما الذعر.

-٣-

يختلفُ الألمُ عندما يصيبُ الصغارَ عن الألمِ الذي يحيقُ بالكبار.

الكبارُ غالباً ما يتألمونَ لخوفِهم من مجيئ هذا الألم، لقلقِهم من تذوقِ تلكَ الغصّة المريرةِ التي يعهدونها، ومعاودةِ تلك التجربة المرهقة الطويلة التي يهابونها. أما الصغار.. فهم يقفونَ كالسنابلِ المشرعَة في وجهِ الريح، غيرَ متحرزين ولا حذرين، ليجتاحَ الألمُ الحقيقي روحَهم، ويعذبهم دونَ أن يدركوا كنهَه وحقيقته.

مضت خمسُ ساعاتٍ دونَ أن يحرّك معنٌ عضلةً واحدة، أو يتزحزحَ قيد أنملةٍ من الركنِ القصيّ في الغرفة الذي انطوى فيه .رأى بعينيه أمَه تلفظُ أنفاسَها، ليأتيَ الطبيبُ ومن معَه ويلفّوها ثم يخرجوها من الغرفة. ثمَّ أتت امرأة عجوز مسحت أرضيةَ الغرفة، وأزالت البحيرة الحمراء التي تدفقت من فمِ أمه. حاولوا مراراً وتكراراً أن يتحدثوا معه، أن يخرجوه من الغرفة دون جدوى. لم يصرخ. لم يبكِ. كان ينزوي في ذاك الركن بلا حراك، وقد طوى ركبتيه قربَ صدرِه، وأخذ ينظر بسهومٍ في فضاء الغرفة. عندما حاولوا إخراجه من الغرفةِ رغماً عنه، منعهم الرجل الملتحي المربوع القامة.

Twitter: @abdulllah1994

كان عقله فضاءً فارغاً إلا من صورٍ تتدافعُ داخلَه بينَ لحظةٍ وأخرى. كانت عيناه مفتوحتينِ إلى درجةِ الإيلام. كم يتمنى لو ينام هذه الليلة..

هذه الليلة فقط. لو يغلق عينيه ليستيقظ في الصباحِ ويجدَ أمه ترقدُ بجانبهِ كالمعتاد. تضمّه حين يلجأ إليها. تبتسم له حين يقبلُ رأسها. ماذا حصلَ لها؟ أين ذهبت؟ هل ماتت؟ ماذا يجبُ أن يفعل؟ أين يذهب في هذه المدينة الكبيرة الغريبة التي لا يعرفُ فيها أحداً يلجأ إليه؟

أخذتِ الأفكارُ والصورُ تتداخلُ وتختلطُ في عقلِه. ابتسمَ ابتسامةَ اليائسِ الذي أدركه الفرجُ أخيراً. إنه النوم. ها هوَ قد جاء. لن يقاومَه هذه المرة. لن يحاولَ أن يراه. سوفَ يهبُ نفسَه إليه بكلِ حبٍ، بكلِ شوقٍ، برضىً واستسلام، علّهُ أن يحتضنَهُ.. أن ينقذَه من هذا الشعور المرّ الغريب الذي يملأ روحَه ويؤرّقه.

تعالَ أيّها النوم.. تعالَ ولا تخش شيئاً، فها أنا أغمضُ عينيَّ برضىً، مستجدياً، مستعطفاً قدومَك المبارك. تعالَ واحضنّي كما اعتادت أمي أن تحضنني..

بقيَ مغمضاً عينيهِ لبرهةٍ من الوقتِ دونَ أن يحسَ ذاك الخدرَ الدافئَ المعتاد يسري في جسدِه. فتحَ عينيه مختبراً.. وعندَها رآه!

كانَ يقفُ وسطَ الغرفة، فوقَه مباشرة. كانَ يتلفعُ بعباءةٍ سوداء ينسابُ لونُها ليتداخلَ معَ لونِ الظلامِ المحيط به. لم يكن هناك أيّ

Twitter: @abdulllah1994

صوتٍ ينبعث لخطواتهِ أو أنفاسِه. كان ينظر في عينيه.. مباشرة.

"هل أنتَ النوم؟" سألَه معن.

"أنا النوم".

ابتسمَ معنٌ وأحنى رأسه بمراراة. كان يتمنى طوالَ حياتِه أن يرى النوم. كان يعاندُ أمه ويغضبها، ويظل لساعاتٍ سهراناً أملاً في رؤيةِ هذا الشيء المتدثر بالسواد. والآن -حينما أراد من كل قلبهِ أن ينامَ ليهربَ من ألِمه- إذا بهذا الشيء الغريب يظهر أمامَه ويقفُ فوقَه!

"لماذا لم أنمْ إذن؟"

"لأني أريدُ أن أريكَ شيئاً".

"ماهوَ؟"

"تعالَ معي".

مدَّ النومُ يدَه الكبيرةَ إلى معنٍ فتناولها. أحس بالدفءِ حينَ ضغطت يدُ النومِ الواثقة على يدِه. نهضَ على قدميه وأخذ يسير بجانبِ النوم. هل هذا الذي يحدثُ حلمٌ أم حقيقة؟

"ألا تخشى أن يرانا أحد؟" سأل معنٌ النوم.

"لماذا أخشى ذلك؟ هل نسيتَ أنّه لا يمكنُ لأحدٍ أن يرانا؟"

"كيف ذلك؟"

"انتظر وسترى".

كانَ هناكَ رجلٌ يجلسُ على بوابةِ البيمارستان الضخمة. بمجردِ أن دخلا الممرَ المؤدي إلى البوابة، تمطّى الرجل وتثاءبَ تثاؤبةً طويلة.

Twitter: @abdulllah1994

رفعَ النومُ يدَه ونفخ ببطءٍ باتجاهِ البوابة. مالت عنقُ الحارسِ على كتفِه. أخذ معنٌ ينظرُ مبهوراً إلى الحارسِ وهمس:

"هل نام؟"

"تأكّد بنفسِك حينما نعبر البوابة".

كانَ الحارسُ يغطُ في نومٍ عميق فوقَ مقعدِه -وقد ابتسم بلذةٍ وارتخى جسُده- حينما مرّا بجانبِه. لفحت معن نسمةُ هواءٍ باردة حينما وقفا خارجَ البيمارستان وسطَ تلك الليلة الغريبة. تساءل معن:

"أين نحنُ ذاهبان؟"

"إلى الجسر الكبير الذي يربط الجانب الشرقي بمحلة الرصافة".

"ولماذا نحنُ ذاهبان هناك؟"

"سوفَ ترى "

أجابَ النومُ باقتضابٍ وأكمل مسيرَه. انحرفا معاً إلى اليمين ليدخلا زقاقاً ضيقاً يوصل إلى ضفة دجلةَ الشرقية والجسر الكبير. كانَ هناكَ شحاذانِ يتشاجرانِ وسطَ الزقاقِ في تلك الساعة المتأخرة من الليل. ابتلع معنٌ ريقه بصعوبة وهو يقتربُ منهما بصحبةِ النوم. التفتَ الرجلانِ ناحيتهما حينما قارباهما، ليرفعَ النومُ إصبعه السوداء ويلمسَ جبهة أحد الشحاذين. أغمض الشحاذ عينيه مباشرةً وسقطَ فوقَ أرضِ الزقاق يغطّ في نومٍ عميق. فتحَ الشحاذ الآخر فمَه ليصرخَ، ولكن النومَ لمسه في حنانٍ على جبهته، ليرسلَه هو الآخر في سباتٍ عميق فوقَ أرض الزقاق الصلبة.

Twitter: @abdulllah1994

تابعَ معنٌ سيرَه بجانبِ النوم، مخلفاً الشحاذَين خلفه يغطان في نومهما العميق. تناولَ النومُ يدَ معنٍ ثانيةً وضغط عليها في حنان ودفء. حينما انتهيا إلى آخر الزقاق رأى معنٌ مياهَ دجلةَ الفضية وقد التمعت تحتَ ضوءِ البدر .كان المنظر رائعاً لا يمكن وصفه. تساءل معنٌ إن كان هذا حلماً أم حقيقةً؟ خصوصاً بعد أن بدأ يشعر بالخدرِ يسري في قدميه المنهكتين.

أخذا يسيرانِ حتى اعتليا الجسر الكبير وتوقفا في منتصفِه. أشارَ النومُ إلى القمر وقال:

"في كل ليلةٍ، حينما أنتهي من الطوافِ على البيوتِ وأرسل جميع الناسِ إلى النوم.. أصلُ هنا إلى الجسر، وعندَها أتعلقُ بأشعةِ النورِ وأعودُ إلى القمر".

تثاءب معنٌ وهو ينظر إلى البدرِ المكتملِ في السماء.

"هل ستذهبُ الآنَ إلى القمر؟"

"نعم.. ولكن ليسَ قبلَ أن أرسلكَ إلى النوم أنت أيضاً. لقد جئتُ بك هنا لأخبركَ عن سر القمر. القمر لا يعكسُ أشعةَ الشمس، وإنما هو يعكسُ نورَ تلك الأرواحِ الطاهرة التي توفيت وستصعدُ بإذن الله إلى الجنة"...

بدأت كلمات النومِ تتداخل، وأخذ الخدرُ يتسلقُ جسدَ معنٍ ويسري في كافةِ أعضاءه.

.."هذه الليلة، اكتمل القمرُ بدراً لأنّ روحاً طاهرة -تفوقُ كلَ

Twitter: @abdulllah1994

الأرواحِ نوراً -توفيت. هذه الروح هي روحُ أمك رحمها الله. عندما أصلُ إلى القمر، سوفَ أخبرها كم كنتَ شجاعاً وعظيماً هذه الليلة. سوفَ أخبرها أنك لم تذرف دمعةً واحدةً، وكم أنت تحبها كما هي تحبك تماماً".

ابتسمَ معنٌ في تعبٍ وسعادة. انحنى النومُ على جبينِه وقَبَّلَه ببطء. وعندَها.. أغمضَ معنٌ عينيه ونام.

-٤-

وكما تنتهي كلُ رحلةٍ، تنتهي رحلتنا.. فتعالَ لنرجعَ معاً ونتركَ الصبيَّ -الذي رأى النومَ- نائماً وحدَه لأولِ مرةٍ، في طريقه الشاقِ والطويل نحوَ الحقيقةِ التي لا تُدرك. تعالَ لنغادر بوابةَ البيمارستان متجهين إلى الجسر الكبير، ولكَ الخيار في أن تنظرَ أو لا تنظرَ إلى آخر الزقاق، فهناكَ سوفَ تجدُ الشيخَ الرئيس -ابن سينا- ينزعُ عباءتَه السوداء، ويهبُ الشحاذَين بعضاً من الدراهمِ مقابلَ امتثالهما لما أمرهما به.

Twitter: @abdulllah1994

كرة البولينغ

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

"الإنسان هو أكثر الأشياء غباءً، إذ إنه غير قادر على رؤية معظم أشكال الحياة حوله".

أحد الأدراج الخشبية

.....

دسَّ خالد سبابته ووسطاه، وأتبعهما بإبهامه، وسطَ الثقوب المخصصةِ لأصابع يدِه في الكرة المطاطية السوداء. لم يلقِ بالاً للبقعة البنية التي كانت تعلو موضعَ الركبة من سروال السنة الذي كان يرتديه، والتي انكشفت، بعدَ أن عقدَ ثوبَه حولَ خاصرتِه .أخذ عبدالرحمن ينظرُ إلى هيئة صاحبه المضحكة وهو يقول:

"شخصية بنت البكار ورضيناها لك، السروال المقطوع وتغاضينا عنه، ولكن قل لي بربكَ كيف سترمي الكرة وأنت ترتدي هذه الزبيريات الشهباء؟"

ابتسم خالد وهو يلقي بنعليه خلف المضمار في حركة سريعة:

"ماذا تعطيني إن أنا استطعتُ أن أسقط القوارير العشر برميةٍ واحدة؟"

"عشاؤك عليَّ حينَها".

"أخاف أن يكون عشاؤك شاورما"!

"سوف يكون شاورما بالنهاية لأنك لن تتمكن من إسقاطهنّ

Twitter: @abdulllah1994

جميعاً".

"و لكن ماذا إن فعلت؟"

"حينَها سآخذك إلى أغلى مطعم صيني في الرياض".

"اتفقنا. انظر جيداً إلى الكرة وهي تفسح لي الطريق إلى المطعم الصيني".

"هيا أرِنا".

تراجع خالد إلى الوراء بعض الشيء، ثمَّ أخذ ثلاث خطواتٍ عريضةٍ إلى الأمام، وطوّحَ بيدهِ في حركةٍ شبه دائرية، وعيناه لا تفارقان القوارير في آخر المضمار.

.....

استفاقت الكرةُ المطاطية من نومِها، بمجردِ أن لامسَ جسدُها أرضَ المضمار الباردة. هبط عليها وعيها فجأةً حتى كاد أن يملأها، ومع الوعيّ، هبط عليها الإدراك، فامتلأت رعباً.

لم يكن المكان ولا الزمان يسمحان لها أن تسترجع الأفكار التي امتلأت بها يوم أمس. كانت تتقدمُ بسرعةٍ خاطفة نحو موضع القوارير، وكان كل ما يلزمها هو تركيز هذه الأشياء التي تجمعت فيها، لتتحولَ إلى إرادةٍ صافية، إرادة مركزة، إرادةٍ قادرةٍ على الحركة.

لم يكن يلزمها أن تمتلك عينين حتى تتحقق من أن القارورة رقم

Twitter: @abdulllah1994

تسعة - والتي كان عنقها محاطاً بخطٍ دائري عنابيّ-، تتواجد بين هذه القوارير .كانت تحسُ بقلقها يملأ أرضَ المضمار، كانت تحسُ بالطاقة تنبعثُ منها على شكلِ أمواج رعبٍ محمومة .

لقد كانت كل الكرات تتحدثُ عن ما جرى بالأمس للقارورة رقم تسعة، وعن المصير المظلم الذي ينتظرها. لم يسبق لأيٍ من الكرات أن رأت من قبل رميةً مثل تلك التي رماها الرجل الأوروبي الذي جاء بالأمس. لقد سقطت جميع القوارير في أقل من ثانية، ولكن القارورة رقم تسعة، لم تسقط ببساطةٍ كباقي القارورات. لقد شاهدت القواريرُ في رعبٍ زميلتهنّ الصغيرة، وهي تقفزُ في الهواء، لترتطمَ بعنفٍ بالحدِّ الحديدي الذي يعلو رؤوسهنّ، ولتسقط بعد أن تهشم غطائها البلاستيكي وتعرى خشب القبقبِ الذي يسكنُ خلفَه .

كانت جميع الأشياء التي تسكن النادي تعرفُ ما معنى أن يتهشمَ غطاؤك البلاستيكي إذا كنتَ قارورة. إنَّ شيئاً مثل هذا، يُخشى منه أن تفقدَ القارورةُ بسببهِ قدرتَها على التوازن وعلى الاصطدام بمرونة. عندها، عندما تفقد أهم خاصيتين تحتاجهما لأداء عملك، سوف تُباع بسعرٍ زهيد في المنجرة المقابلة، كي يستفيدَ صاحبُها من خشبِ القبقب الذي يملأ جوفك. كانت جميع الأشياء تعرف أن مصير القارورة رقم تسعة سوف ينتهي بالمنجرة قريباً، بمجردِ أن تتعرضَ إلى ضربة أخرى مماثلة.

Twitter: @abdulllah1994

حاولت الكرة المطاطية أن تبددَ جميع هذه الأفكار التي أخذت تتوالدُ في جوفِها، ثم أحجمت عن ذلك، وأخذت تحاول أن تركّزها، أن تحولها إلى إرادةٍ للحركة .

"و لكن، هل أنا إلا اندفاع مجبور وسطَ المضمار! هل أنا إلا كرة مرمية، ليس لها إلا أن تندفع بالكيفية التي أريدَ لها أن تندفعَ فيها! لستُ أنا من اختار المسار، وإنما ذاك الذي رماني بتلك السرعة، وتلك الزاوية، وتلك الكيفية" أخذت تفكر الكرة وهي تنطلق بسرعةٍ نحوَ آخر المضمار.

"و ماذا لو تكبدتُ كلَ هذا العناء واستطعتُ بالأخير أن أتفادى القارورة رقم تسعة؟ ماذا بعد ذلك؟ سوف تُرمى كرة أخرى بعدي مباشرة، وسوف تنطلق بسرعةٍ لتصطدم بها، وستجهز عليها حينها. هل تستحقُ الدقيقة أو الدقيقتين اللتين سأمنحهما لها كل هذا العناء وكل هذه المشقة؟" أخذت الأفكار تتدافعُ داخل الكرةِ كاللحظات الخاطفة.

"و لكني لو كنتُ مكانها، لتمنيتُ هذه الدقيقة أو هاتين الدقيقتين، ولربما تأخر أجلها، وأخطأتها الكرات القادمة! ليحدث ما يحدثُ لها بعدي، هذا لا يعنيني، ما يهمني أن لا تكون نهايتها بسببي." كانت هذه هي الفكرة الأخيرة التي امتلأت بها الكرة المطاطية قبل أن تصطدم بأولى القارورات .

Twitter: @abdulllah1994

كانت الكرة المطاطية تعرف المسار الذي سوف تتخذه، وتحفظه تماماً. بمجرد أن لمست بجسدها أرض المضمار وحددت مكانها من القارورة الأولى، عرفت أنها سوف تسقط جميع القارورات بضربةٍ واحدة. كانت رمية مثالية، رمية صائبة، وهذا النوع من الرميات يحتم عليها أن تصطدم بالقارورة الأولى، فالثالثة، فالخامسة، فالتاسعة. هذه القوارير الأربع سوف تتطاير في زوايا محسوبة، لتدفع بباقي القوارير وتسقطها معها. أخذت القوارير تتطايرُ في كل الاتجاهات وتتقافز حول الكرة المطاطية: الأولى، فالثالثة، فالخامسة، والآن..

ركزّت الكرة المطاطية جميع طاقتها، جميع قوتها، جميع إرادتها، لتدور بجسمها ذاتياً في اتجاه ذاك الميلمتر الواحد الذي كان كافياً للسماح لفتحة الإبهام فيها، أن تلامس أرض المضمار الصناعية، وأن تخلق ذاك الانحراف البسيط والحاسم.

عندما استوى خالد معتدلاً على قدميه، كانت القارورة رقم تسعة تقفُ وحيدةً في نهاية المضمار.

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

الإسطرلاب

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

"شيئانِ يملآنِ عقلي بتقديرٍ متجددٍ وحبورٍ متزايد كلما تفكّرتُ فيهما:
النجومُ المتلألئة فوقي، والنظام الأخلاقي داخلي".
إيمانويل كانط

-١-

الدنيا تتكونُ من مُثلثات، من عددٍ لا نهائيٍ من المُثلثات.. هذه حقيقةٌ لا يعرفها إلا الرياضيون، وأولئك الذين سخّروا حياتهم لصنع الإسطرلابات. الدنيا تتكونُ من عددٍ لا نهائيٍ من المثلثات. صل بين أيّ مكانين معلومين، وستستطيع الاهتداء إلى المكان الثالثِ إن كنتَ تعرفُ حساباتِ أيّ ضلعٍ وزاوية في المثلثِ الواصل بين الأماكن الثلاث. الدنيا تمتلئُ بعددٍ لا حصر له من المثلثات. كانت هذه هي القاعدة الذهبية التي استخدمها إبراهيم التنوخي في صنع الإسطرلاب الغريب الذي سألتهُ مولاتهُ صُبح أن يصنعه لها، والذي أمسكت به بعنايةٍ وحَذَر، وهي تشقُ طريقها في أزقة أشبيليّة، متلمسةً طريقها إلى الجنة .

لكن ما بالي أستبقُ الأحداث وأوري لك نهايتَها قبلَ أن أخبركَ عن البداية؟ دعني أرجعُ بكَ ثلاثينَ يوماً إلى الوراء، إلى تلك الليلة الرمضانية الباردة التي أخذت رياحُها تقرعُ الدرفاتِ وتصفقُ بالأبواب.

تبدأُ هذه القصة بالتحديد في محلٍ لصنعِ الإسطرلابات، وتنتهي

Twitter: @abdulllah1994

في الجنة، وبين ذاك وتلك تفاصيلُ أحكيها هُنا. يبدو أنَّ إبراهيمَ التنوخي منشغلٌ عن مقدمِنا بتفحصِ إسطرلابهِ الكروي الجديد الذي يحاولُ الانتهاء منه. حاذرْ كي لا تطأَ على إحدى القطع النُحاسية المنتثرة في فضاءِ الغرفة، فأنتَ أحوجُ ما يكون إلى سلامة قدميك، وخصوصاً عندما تبدأ أحداث هذه القصة بالتلاحق.

التفتَ إبراهيمُ بكاملِ جسده عندما سمعَ قرعاً مُفاجئاً على الباب.

كانَ القرعُ مُختلفاً عن طقطقةِ الريحِ المُستمرة. تركَ ما بيدِه، وشقّ فضاءَ الغرفةِ بخطواتٍ واسعة وهو يصرخ:

"مَنْ هناك؟"

لا إجابة! وضعَ يدهُ الغليظةَ على المزلاج الخشبيّ وأزاحهُ بحركةٍ رشيقة. عندما فتحَ الباب، رأى امرأةً مُتوشحةً بخمارٍ أزرق، تقفُ على عتبةِ بابه. حدقَ إبراهيمُ باستغرابٍ في هيئة المرأة الواقفة وحيدةً وسط الظلامِ والليل.

"ماذا تريدينَ يا أَمَةَ الله؟"

لم تُجبه، وإنما تحركتْ بثقةٍ باتجاه فتحةِ الباب، مما حدا بإبراهيم أن يفسحَ لها كي لا تصطدمَ به. أزاحتْ المرأةُ خمارَها وكشفت عن شعرٍ أسودٍ فاحم، وعينين سوداوين حزينتين، تبدو في نظرتيهما دلائلُ التعب. أقفلَ إبراهيم بابَ دارِه، كي لا يراه أحدٌ مختلياً مع هذه المرأة

Twitter: @abdulllah1994

وسطَ الليل. أعادَ إبراهيمُ سؤاله:

" ماذا تريدين يا أمةَ الله؟"

"أريدكَ أن تصنعَ لي إسطرلابا".

"ألم تجدي غير هذه الساعةِ المتأخرةِ كي تأتي بطلبك؟"

"سمعتُ أنكَ تزعمُ أنَّ بإمكانكَ صنع إسطرلابات قادرةٍ على تحديد أي مكانٍ أو اتجاه".

"لستُ أزعمُ وإنما هذه حقيقة. أرسلي بوصفِ هيئة الإسطرلاب الذي تريدين أن أصنعهُ لكِ، وسأوافيكِ به كاملاً في المدة التي تحددينها".

"اِصنعْ لي إسطرلابا يدلني على الجنة".

سكتَ إبراهيم التنوخي. كان يظنُ في البداية أنها امرأةٌ بَغي، ولكنه أدركَ الآنَ أنها مجنونة .

"الجنة! لو بمقدوري صنع مثل هذا الإسطرلاب، لاتخذتهُ لنفسي".

"اِصنع لي الإسطرلاب، وستوافيكَ خادمتي بالمبلغ الذي تحددهُ آخرَ الشهر".

سارعَ إبراهيمُ إلى الدُرجِ الذي يحفظُ به أدواته، وأخرجَ منهُ صحيفةً ودواةً. سألَ المرأة:

"ما اسمكِ؟"

"ماذا تريدُ باسمي؟"

Twitter: @abdulllah1994

"لا أبدأُ بصنعِ إسطرلاب حتى أكتبَ عهدَ مبايعةٍ بيني وبين صاحبِ الإسطرلاب".

حدقت المرأةُ ملياً باتجاه الصحيفة والدواة، ثمَّ تمتمتْ: "صُبح، زوجُ الأمير محمد بن سعد بن مردانيش".

-٢-

لو سألتَ إبراهيم التنوخي عن السببِ الذي دفعهُ لكتابة تلك الصحيفة، لأعجزهُ أن يجيبَك ولأسقطَ في يدِه. كانَ يدركُ أنَّ الفكرةَ أقربُ إلى الجنون، ولكنهُ وجدَ نفسهُ ينصاعُ إليها ويبدأُ بالعملِ لتحقيقها رغماً عنه. ربما كانَ لوجه المرأةِ الحزين علاقةٌ بالأمر! ربما كانت الصحيفة المكتوبة ضمانَ عودةٍ يكفلُ بها رؤيتها ثانيةً والتعرفَ على سِرِها، وربما كانَ سحرُ الفكرة باعثاً كافياً لكتابةِ الصحيفة! إسطرلاب يأخذكَ إلى الجنة! كانت الفكرةُ أجملَ من أن تُصرفَ بهذه السهولة.

كانت صناعة الإسطرلابات في أوجّ عزها في تلك الفترة الذهبية بالأندلس، وما الكتبُ والنماذج التي خلّفها ابن الصفّار وتلامذتهُ إلا شاهدَ إثباتٍ على ذلك. لقد أصبحت الدنيا كلها مرسومةً على سطح الإسطرلاب المُسطح. بإمكانكَ أن تقيس ارتفاع

Twitter: @abdulllah1994

الأجرام السماوية، وخطوطَ العرضِ والطول، والتوقيت الذي تقومُ فيه بعملية المراقبة، وأن تحددَ اتجاه القبلة، كلُ ذلك باستخدام تلك الدائرة النحاسية الصغيرة. كلُ ما عليكَ عمله هو أن تجعل نقطة الصفر في دائرة العنكبوت باتجاه الأفق، وأن تنظر إلى طول العضادة كي تحسبَ ارتفاع أيّ نجمٍ سماوي. لقد وصلَ الأمرُ بإبراهيم التنوخي أن وقفَ متبجحاً في بلاطِ ابن مردانيش، زاعماً أنَّ بإمكانِه صنع إسطرلاباتٍ قادرةٍ على تحديدِ أيّ مكانٍ أو اتجاه .

و لكنّ الجنة.. الجنة مكانٌ غيرُ معروف، مكان غير مُدرك أو معقول لدى البشر. إنّ فنَّ صناعة الإسطرلابات يعتمدُ على معرفةِ مواقعِ النجوم، ومن ثمَّ رسمها على دائرتي العنكبوت بطريقةٍ تُحافظ على النسبِ والأماكن التي تتخذها هذه النجوم من الأرض. لكي تصنعَ إسطرلاباً قادراً على تحديدِ نجم الشمال، يجبُ أن تعرفَ أينَ يقعُ نجمُ الشمال. لا يمكنُ صناعةُ إسطرلاب يوصلُ إلى مكانٍ يجهلُ صانعُ الإسطرلاب موقعه، وخصوصاً إذا كان الجنة .

فتشَ إبراهيم التنوخي في كتاب" المجسطي" لبطليموس لثلاثِ ليالٍ دونَ جدوى. كانت جنةُ بطليموس تحيطُ بالأرض من كل اتجاه، وكأنها كرةٌ مجوفةٌ تبتلعُها. ماذا ستفعل المرأة الغريبة إن ناولها إسطرلابهُ زاعماً أنَّ كل نقطةٍ في الأفق توصلُ إلى الجنة؟ سوف ترمي الإسطرلاب على وجههِ بالتأكيد. في اليومين التاليين، قرأ إبراهيمُ

Twitter: @abdulllah1994

كتاب "العمل بالإسطرلاب" لابن البيطار، ولكنَّ أستاذهُ لم يكن يطمحُ بنظرهِ إلى أماكنَ لا يمكنهُ الوصولُ إليها مثلَه. عندما أعجزهُ العثور على الجنة في كتبِ الفلك، لجأ إلى القرآن الكريم، وختمه في سبعِ ليالٍ، ولكنهُ لم يجد في الآيات المتحدثةِ عن الجنةِ ما يسعفهُ في التعرفِ على مكانها أو تحديدِ اتجاهِها.

نصفُ شهرٍ مضى على كتابة الصحيفة، وهو لا يزالُ غارقاً في لُجةِ كتبِه. خرجَ إبراهيم التنوخي من دارتِه أخيراً، وأخذَ يضربُ في فحصِ أشبيلية حتى أشرفَ على الوادي الكبير. كانت قبةُ السماءِ تلمعُ بشهبها في الليل. آلافٌ من النجومِ التي تتطلعُ من أعلى، والتي يحفظُها ويستطيعُ أن يصنفها إلى مجموعاتٍ حفرها مئات المرات على دائرتي إسطرلاباته. أينَ هي الجنة؟ أخذت الأيامُ والليالي تتسربُ كحباتِ الرمال من قبضةِ يدِه، دونَ أن يهتدي إلى إجابةٍ أو طريقٍ يوصلهُ إلى إجابة.

في اليومِ الحادي والعشرين، تذكرَ إبراهيمُ التنوخي أولَ درسٍ سمعهُ من أستاذه أبي الأصبغ الجيّاني: "الدنيا مليئةٌ بالأشياء، ومحالٌ على المرءِ أن يلمَّ بتفاصيلِ كلِ هذهِ الأشياء، لذا إن أعجزتكَ مسألةٌ أو تعذّرتْ عليكَ إجابة، حاول أن تصنفها إلى بحرٍ من العلوم، ثمَّ اقصد أولئك الذين تحسبُ أنهم قد خصصوا حياتهم للتبحرِ في ذاك العلم".

لقد سمعَ إبراهيمُ الناسَ يتحدثون كثيراً عن رجلٍ يُدعى محيي

Twitter: @abdulllah1994

الدين بن عربي، يزعمونَ أنَّ لهُ كراماتٍ وخوارق، وأن حديثه أشهى من العسلِ المصفّى وأبردُ من الماءِ الزُلال، وأنه قد تبحر في العلومِ الدينية والشرعية منذ أتى به أبوه من مرسية إلى أشبيلية. ولقد سمعَ شحاذاً أخبرهُ أن محيي الدين مرضَ مرضاً شديداً في شبابه، وأنهُ حلمَ أثناء الحُمى أنّ أرواحاً شريرةً تحيطُ به من كل جانب وأنها تنوي الفتكَ به، وعندها رأى شخصاً جميلاً قوياً مشرقَ الوجه، حملَ على هذه الأرواح الشريرة ففرقها شذرَ مذر، ولم يبقِ منها أثراً، وعندما سأله محيي الدين عن اسمه قال: "أنا سورة يس." إن كانَ هناكَ رجلٌ أجدرُ بأن يعرفَ أينَ هي الجنة، فهو هذا الرجل تطلقُ عليه العامةُ لقبَ "مولانا ابن عربي."

-٣-

لم يكنْ العثور على محيي الدين بن عربي بالأمر الشاق، فبعدَ أن سلّم إمامُ جامع إشبيليةَ من صلاة المغرب، تحلّقَ الناسُ والشحاذون حولَ الرجلِ الشابِ المُجللِ بالبياض، وأخذَ إبراهيمُ يتبعهُ في طريقهِ إلى دارِه حتى انفضّ عنه الناس. توقفَ ابن عربي في نصفِ الطريق والتفتَ نحوَ إبراهيم التنوخي بوجهٍ وقور وابتسامةٍ عذبة:

"هل لكَ حاجةٌ نقضيها لك يا عبدَالله؟"

عجّلَ إبراهيمُ من خطوهِ حتى حاذى ابن عربي، وصافحهُ وهو

Twitter: @abdulllah1994

يحدقُ في عينيه العميقتين.

"أريدُ أن أصنعَ إسطرلاباً".

حدّقَ ابنُ عربي بدورِه في عينيّ إبراهيم مُستفهماً، وسأل:

"هذه هي صنعتُك؟"

"مُذ ولدتني أمي".

"و كيفَ لي أن أساعدَك؟"

"أخبرتني المرأة التي عهدت إليّ بصنع الإسطرلاب، أنها تريدهُ كي يدلها على الجنة".

"إسطرلاب يدلها على الجنة؟"

هزَّ إبراهيم التنوخي رأسه في اهتمامٍ، دونَ أن ينبسَ ببنتِ شفة .

طرقَ محيي الدين بن عربي برأسهِ لثوانٍ، ثمَّ رفعَه ليتطلعَ مباشرةً في عينيّ إبراهيم التنوخيّ.

"ما الجُرم الذي أحدثته المرأةُ كي تطمحَ إلى إسطرلاب يأخذُها إلى الجنة؟"

"لا أدري! كلُ ما أعرفهُ أنَّ اسمها صُبح، وأنها زوجُ الأمير ابن مردانيش".

"هذا كلُ ما تعرفهُ عنها؟"

هزَّ إبراهيمُ رأسهُ ثانية.

"كيف تنوي أن تصنعَ لها إسطرلاباً يأخذها إلى الجنة وأنتَ

Twitter: @abdulllah1994

تجهلُها؟"

"لم أفهمْ ما تقصده"!

"لماذا خلقَ اللهُ الجنة؟"

"لماذا خلقَ اللهُ الجنة"!

هزَّ ابنُ عربي رأسهُ منتظراً إجابةً من الإسطرلابيّ.

"كي يجزي بها من أطاعهُ من عبادِه".

"و خلقَ النارَ كي يعاقب أولئك الذين أجرموا. إنَّ كلِ امرئٍ يحملُ جنتهُ وسطَ قلبِه، ونارَه فوقَ ظهرِه".

تطلعَ إبراهيم بتضرعٍ نحوَ ابن عربي، وكأنه يرجوه أن يفصحَ أكثر في حديثِه.

"إن كان إسطرلابكَ الذي تصنعُ قادراً على أن يوصلكَ جنتَك، فهو عاجزٌ لا ريب عن أن يوصلها إلى نفسِ الجنة. جنتُها تختلفُ عن جنتِك، كما أنَّ نارَها تختلفُ عن نارِك، ولكي تصنعَ إسطرلاباً قادراً على أخذِها إلى الجنة، يجبُ أن تصنعهُ لها، لا لك".

أضاءَ وجهُ إبراهيم التنوخيّ بالسعادةِ، واستدارَ وابتسامةٌ واسعةٌ تجللُ وجهه.

"أينَ أنتَ ذاهب؟"

"إلى داري كي أصنعَ الإسطرلاب".

"إذن، قد فهمت"!

Twitter: @abdulllah1994

"فهمتُ يا مولانا، فَهِمت".

-٤-

كانت الأميرةُ صُبح بصحبةِ قهرمانتِها عندما طرقتْ باب إبراهيم التنوخيّ هذه المرة. أشاحت القهرمانةُ بوجهها عندما فتحَ إبراهيمُ الباب، وكأنها تحاولُ أن تخفيَ عن سيدتِها أحداث تلك الليلة التي استلمتْ فيها مبلغاً من المال مقابل معلوماتٍ سألها الإسطرلابي أن تبوحَ لهُ بها عن سيدتِها. كان الإسطرلاب النحاسيّ ملفوفاً بقطعةٍ من الجوخِ الأحمر. دفعَ إبراهيمُ بالإسطرلاب إلى الأميرةِ صُبح، وأخبرها بأنَّ عليها أن توجهَ نقطة الصفر في دائرةِ برجِ الجديّ نحوَ الأفق، وأن تسيرَ منطلقةً من دارِه حتى تصلَ إلى المكان الذي تتقاطعُ فيه عضادةُ الجنة مع العضادة الرئيسية في موضعِ سهيلِ اليماني.

شقّت الأميرةُ صُبح طريقها في أزقةِ أشبيلة، وهي تحملُ بعنايةٍ وحذر الإسطرلاب النحاسي الذي صنعهُ لها إبراهيم التنوخيّ. كانت تتطلعُ بحذرٍ فيما حولها، وتتنقلُ ببصرها بين كل دقيقةٍ وأخرى ما بين الأفق المختلطِ بالظلام وبين العضادتين الذهبيتين .أخذت قهرمانتُها تتبعها وهي تسترجعُ الحديثَ الذي دارَ بينها وبين الإسطرلابيّ ذي العينين الفاحصتين:

"ما الذي تريدُ أن تعرفَه بالضبط؟"

Twitter: @abdulllah1994

"ما الجُرم الذي أقدمت عليهِ مولاتـكِ، والـذي مـا زالـت غـيرَ قادرةٍ على أن تتناساه"

"كنتُ خادمةً بسيطةً لدى مولاتي صُبح عنـدما تزوجـت قائـد الجند أحمد بن أبي يزيـد، وكنـتُ أولَ مـن حمـلَ ابنهـا عياضـاً عنـدما وضعته. أخبرها النطاسيُ ابن زهر أن ولدَها غيرُ قادرٍ على الحياة، وأنَّ أطرافهُ أثقلُ من أن تسمحَ لهُ بالحركة .كان بلوغُ عياض العاشـرةَ مـن العمر أشبه بالمعجزة، ولولا العناية الدائمة التي كانت تصرفها مـولاتي صُبح تجاه ولدها لقضى نحبَه في أوائل عمرِه. كان لا يقبلُ الطعـام إلا من يدِها، وكانت تجرشهُ له وتُطعمه رغم الحَدبِ والنَصب الذي ينالُها بسببه .عندما قضى زوجها أحمد في سـاحة الـوغى كـادت مـولاتي أن تهلكَ من الحزن. كنا نضربُ كفـاً فـوق كـف، ونترحـمُ علـى جمالِهـا الضائع حتى حدثت المفاجأةُ وتقدمَ لخطبتِها الأمير محمد بن سعد قبـلَ سنة. وعدَها الأمير ابنُ مردانيش أن يُنعم عليها وأن يخـصَّها بـالحظوةِ من بينِ نسائه، وأن ينسيها ما تكبدته منَ المشاقِ والأتراح، لكن بشرط : أن لا تصحبَ معها ابنها العليل إلى القصر"..

توقفتْ الأميرةُ صُبح، وأخذت تتطلـعُ في صـفحةِ الإسـطرلاب وقد تقاطعت عضادتاه في زاويةٍ قائمة. كـان نجـمُ سـهيلٍ يلمـعُ فوقَهـا وكأنه سراجٌ ليليّ. أخذت تتطلعُ في المنطقة الخلاء التي توقفـت فيهـا، بعد أن اجتازت وخادمتها الغوطةَ المُحيطة بأشبيلية من الـشرق. تقـدمَ

Twitter: @abdulllah1994

رجلٌ عجوزٌ حافي القدمين يبدو من هيئتهِ أنهُ كان ينتظرُ وصولَهما. سألت صُبح:

"ما اسمُ هذا الموضع أيها الرجلُ العجوز؟"

"هذه مقبرةٌ يا ابنتي".

ابتلعتْ صُبح ريقها بصعوبة، وهتفت بصوتٍ مخنوق:

"هل تدري من همُ القومُ الذين دُفنوا هنا؟"

"صبيٌ في الحاديةِ عشرة من عمره، أظنُ أنه كان ابناً للقائد أحمد بن أبي يزيد رحمهُ الله".

سقطتْ الأميرةُ على ركبتيها، وأخذت تحثو ترابَ القبرِ فوقَ شعرِها. هذا هو القبر إذن! هذا هو قبرُ ابنِها الذي عَهدت بهِ إلى عمِه العباس، والذي مات صَبراً بعد أن امتنعَ عن تناولِ الطعام. هذا هو قبرُ فلذة كبدِها عياض، والذي منعها الأمير ابن مردانيش من زيارتهِ، وحذرَ جواري وغلمان القصر من الإتيانِ بذكرِه. أخذت الأميرةُ صُبح تبكي وسطَ الليل لأول مرة .أخذت تمرّغ وجهها بالتراب، وكأنها تحاولُ أن تجد فيهِ ريحَ ولدِها التي كانت أنفسَ لديها من الأرضِ وما عليها.

"اصفح عني يا عياض. اصفح عني يا أبا عياض. اغفر ذنوبي يا الله. امحِ ذنوبي يا الله"...

ليلٌ وقبرٌ وقهرمانةٌ وامرأةٌ مكسورة تبكي ولدَها الميتَ لأولِ مرة.

Twitter: @abdulllah1994

الدنيا تتكونُ من مثلثات، من عددٍ لا نهائي من المثلثات، ولو سألتَ إبراهيم التنوخي أن يثبتَ لك ذلك، لرسمَ مثلثاً هائلاً يصلُ ما بينَ دارهِ وغوطةِ أشبيلية، ويرتفعُ عالياً حتى يلامسَ سهيل اليماني في السماء.

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

بيتُ الساحرة

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

بطلُ قصتي يُدعى أحمد، وهو بطلٌ بالمعنى الملحمي للكلمة. هو بطلٌ بالمعنى الذي يقصده الناسُ حينما يستخدمون هذه الكلمة في حديثهم عن خالد بن الوليد وهرقل وجلجامش والأسكندر المقدوني. قد يستغربُ البعضُ اختياري لطفلٍ لا يتجاوزُ السادسةَ من عمرهِ كي أحكيَ قصةً عن البطولة، ولكني آملُ أن يوافقوني الرأي، أو أن يستطيعوا -على الأقل- أن يروا وجهة نظري حينما ينتهونَ من قراءة القصة.

أظنُ أنَّ من واجبي أن أبدأَ بالقولِ إنَّ أحمدَ كان ذا قلبٍ كبير، قادرٍ على أن يسامحَ من أساؤوا إليه وأن يتغاضى عن ذنوبهم. ولكن ورغم ذلك، يؤسفني أن أقولَ أنَّ أحمدَ كانَ غيرَ قادرٍ على أن يسامحَ أمهُ بعدَ ذاك المساء الذي تركتهُ فيهِ وحيداً في بيتِ الساحرة. من المفترضِ بالأمهات أن يدافعنَ عن أطفالهنّ، أن ينافحنَ عنهم حتى الرمقِ الأخير، أن يكنَّ لهم سنداً وملجأً يحتمون به إليه، لا أن يتركنَهم في أكثر الأماكن خطورةً، ثمَّ يذهبنَ دون مسؤولية إلى السوق!

لا يتذكرُ متى كانت المرة الأولى التي رأى فيها الساحرة العجوز، ولكنهُ يتذكرُ جيداً الفزعَ الذي أصابهُ حينَها. كان وجهها الشاحبُ يمتلئُ بالتغضناتِ والتجاعيد، وكأنها لم تقربِ الماءَ منذُ أكثر من مئة سنة. كانت تغطي أذنيها بشعرها الأسود المشوب بحمرةٍ مريبة، ورغم

Twitter: @abdulllah1994

ذلك، لم يكن يفوتها صوتٌ أو همسة مما يُقال. يتذكرُ كيفَ انفجرَ باكياً حينما شاهدها أول مرة، وكيفَ كانت أمه ترددُ بصوتٍ وجلٍ امتلأَ خجلاً: "عيب يا أحمد، هذه أمكَ نورة".. "عيب يا أحمد، هذه أمي نورة". لم يكن بإمكانهِ أن يستوعبَ كيف يمكنُ لهذه العجوز الشمطاء أن تكونَ أماً لهُ ولأمهِ في نفس الوقت، ولم تزدهُ هذه الأفكار إلا يقيناً في كونها ساحرة.

كانَ يجلسُ في المقعدِ المجاور للسائق الهندي عندما توقفت سيارتهم "البونتياك" أمامَ بيتِ الساحرة. هتفتْ أمهُ المتلفعةُ بالسوادِ من المقعد الخلفي:

"ماذا تنتظر؟ انزل".

التفتَ أحمدُ نحوَها بنظرةٍ متضرعة، محاولاً التعبير عن مخاوفهِ التي لم تلقَ آذاناً صاغية حتى الآن. لم تمهلهُ أمه، بل هتفتْ في ضيق:

"انزل. سوف يؤذن للمغرب قبلَ أن أصل إلى السوق".

فتحَ أحمدُ باب السيارة، ونزلَ بخطىً متثاقلة. كان بابُ منزل الساحرة الأسود ينتظره في ترقبٍ وكأنه ينوي ابتلاعه. قرعَ أحمدُ الجرس وأتاهُ صوتُ الخادمة "شيراني" "مدوياً من فتحات الإنتركوم العديدة. بمجرد أن هتف أحمدُ باسمه، سمعَ صوتاً كهربائياً يسري عبرَ الجدار، ليتحركَ بابُ الدار الأسود مندفعاً إلى الأمام. انطلقت السيارة تاركةً أحمدَ وحيداً أمامَ بيتِ الساحرة. تجاوز أحمدُ عتبة المنزل الرخامية

Twitter: @abdulllah1994

وسحب البابَ خلفه.

كانت بسمةُ أولَ شيء وقعتْ عليه عيناه حينما دخل بيتَ الساحرة. كانت تمسكُ بيديها الصغيرتين حبلاً ملوناً أخذ يدورُ بسرعةٍ حولَها، فيما أخذت هي تقفزُ برشاقةٍ كلما اقتربَ الحبلُ من سطحِ الأرض. كان شعرها المجموعُ في عنقوصين صغيرين يتراقصُ معها صعوداً وهبوطاً.

توقفَ الحبلُ عن الدوران عندما لمحتْ أحمد. هتفتْ قائلة:

"أنا بسمة. أنتَ من؟"

"أحمد".

"سبقَ لي أن رأيتكَ في بيتِ عمتي حصة. كم عمرك؟"

"ستة".

"أنا خمسة".

ابتسمَ أحمدُ وقد أحسَّ ببعضِ الاطمئنان عندما وجدَ طفلاً آخر في بيت الساحرة. يستطيعُ أن يثقَ ببسمة التي تصغره بسنةٍ واحدة. سألها:

"ماذا تفعلين في بيت الساحرة؟"

"ساحرة"!

"العجوزُ التي تغطي آذانها بواسطة شعرها".

"ماما نورة؟"

Twitter: @abdulllah1994

"هل هيَ أمكِ أنتِ أيضاً؟ "

"أبي أخبرني أنّ اسمها ماما نورة"!

"هذه العجوز ساحرة. تستطيعُ أن تكونَ أماً لكِ ولي ولأمي في نفس الوقت".

"هي أيضاً أمٌ لأبي"!

"هيَ ساحرة".

ألقتْ بسمةُ حبلها الملون على الأرض، واقتربتْ من أحمد وقد انعقدت حواجبها بشكلٍ مضحك:

"لا يمكن أن تكون ماما نورة ساحرة! هيَ تهبني الحلوى والشوكلاتة في كلِ مرةٍ تراني فيها".

"انتبهي! لا تأخذي منها شيئاً".

"لماذا؟"

"هيَ تعطيكِ الحلوى والشوكلاتة كي تغررَ بكِ وتأكلكِ. ألم تسمعي قصة "هنزل" و"جريتل"، وكيف أنَّ الساحرة التي تسكن في منزل الحلويات كانت تنوي أن تأكلهما؟ إذا أخرجتْ العجوز الساحرة حلوياتٍ من حقيبتها وأخبرتكِ بأنَّ عليكِ أن تتبعيها، فاهربي، اهربي ولا تصغي إلى كلامها".

امتقعَ وجهُ بسمةَ بعدَ سماعِ هذا الكلام الذي عكّرَ مزاجَها دونَ سابق إنذار. دوّى فجأةً صوتُ جرسِ البابِ الخارجي، مما دفعَ بسمةَ

Twitter: @abdulllah1994

لأن تقفزَ فزِعةً من مكانها.

"هذه ماما نورة، لقد رجعت من عند الجيران".

"اهربي ".

هتفَ أحمدُ وهو يمسكُ بيدها، ليقفزَ برشاقةً العتباتِ الرخامية الثلاث،و ليدخلَ معها منزل الساحرة. لم يكنْ يملكُ وقتاً كافياً كي يتثبّتَ مما حوله أو ليعرفَ أينَ هو. أخذ يجري بصحبةِ بسمة حتى وصلَ إلى ردهةٍ تصلُ بينَ المطبخ والصالة والدَرَجِ المؤدي إلى الدور العلوي. كانت هناك حجرةٌ صغيرة تحت الدرج يستخدمونها لتخزين الأرز والطعام، وكانت محاطةً بأعمدة الحديد والزجاج المصبوب الأصفر. اندسّ أحمد بسرعةٍ بصحبة بسمة بين أكياس الأرزّ، وأقفل الباب خلفهما.

من مخبئهما المنخفض، كان بمقدورِ أحمد وبسمة أن يريا أقدام العابرين تحتَ حدِّ الباب. كتمَ أحمدُ أنفاسهُ عندما لمحَ عصا الساحرة الغليظة وقدميها المتشققتين. كانت الساحرةُ العجوز تحادث الخادمة "شيراني" وتفضي إليها بأوامر معينة. أخذ صوت الساحرة العجوز يبتعدُ تدريجياً، ولم يعد بمقدار أحمد أن يلمح قدميها من الفتحة الأفقية الواقعة أسفل الباب. همست بسمةُ بصوتٍ منخفض:

"ماذا الآن؟"

"هل تدرين أين ذهبت الساحرة العجوز؟"

Twitter: @abdulllah1994

"أظنها ذهبت إلى غرفتها في الأعلى".

"هل أخذت عصاها معها؟"

"لا.. هي تتركُ عصاها عادةً في صالة الضيوف".

التمعتْ عينا أحمد وهمسَ قائلاً:

"لنسرقْ عصاها إذن".

"لماذا؟"

"كي لا تستطيع اللحاقَ بنا إذا ما نوت أن تأكلَنا".

"عصاها في الصالة".

"لنسرقْها".

دفعَ أحمدُ باب الحجرةِ الواقعة أسفلَ الدرج بحذر، وأطلَّ برأسه الصغير. لم يكن هناك أيُّ أثرٍ للساحرة العجوز. كانت الخادمة "شيراني" منشغلة داخل المطبخ في تنظيف الصحون، فيما كانت العصا السوداء مسندةً على مدخل الصالة. سحبَ أحمدُ العصا في خفةٍ، وانطلقَ هارباً عبر الباب إلى الحوش، ووراءه بسمة.

أخذا يجريان حتى انتهيا إلى الفناء الأمامي الذي يصلُ الباب الخارجي بالبيت. كانت بسمةُ تتنفسُ بصعوبةٍ وقد احمرّت وجنتاها.

هتفت بعدَ أن استرجعت بعضاً من أنفاسها:

"ستغضبُ ماما نورة".

"و لكنها لن تستطيع أن تلحقنا بدون العصا".

Twitter: @abdulllah1994

"سوفَ ترسلُ "شيراني" كي تُرجعَ عصاها إليها"!

لم يحتاجا إلى أن ينتظرا طويلاً كي يتحققا من مخاوف بسمة، إذ سرعانَ ما علا صوت الخادمة "شيراني" المبحوح وهي تناديهما في ضيقٍ ظاهر. ألقى أحمدُ العصا الغليظة على بلاط الحوش الأبيض، وانطلق بصحبة بسمة ليلتفا حولَ الدار بعيداً عن الخادمة "شيراني". انتهى بهما الطريق إلى ملحقٍ صغير يسدُ طريقهما، ويقعُ مباشرةً وراء غرفة الضيوف التي تجلسُ فيها الساحرة عادةً وقتَ المساء. اندسَّ أحمدُ وراءَ برميلٍ أخضرَ يقعُ تحتَ نافذةِ غرفة الضيوف، وأشار نحوَ بسمة لتجلسَ القرفصاءَ بجانبه.

رغمَ أنَّ الظلام بدأ يطبقُ في الخارج، إلا أن السائقَ لم يضئ مصابيح الإنارة في هذه الجهة من المنزل. همست بسمة:

"أنا خائفة".

"يجبُ أن نختبئَ هنا حتى ترجعَ أمي من السوق".

"متى ترجع؟"

"لا أدري"!

"أحسّ بالعطش".

"لا نستطيع أن نتركَ هذا المكان. تحمّلي حتى ترجعَ أمي".

رغمَ حُلكة الظلمة، ورغم برودة الجوّ، ورغم العطش الذي أخذ يتزايدُ مع كلِ دقيقة، إلاّ أن بسمة بقيت جالسةً القرفصاء بجانب

Twitter: @abdulllah1994

أحمد، لمدة ساعةٍ ونصفِ الساعة دونَ أن تبرحَ مكانها. يتحدثُ أهل بسمةَ كثيراً عن ضيقِ بالها وقلة صبرها، إلا أني أظنُ شخصياً أن لا أحدَ قادرٌ منهم على أن يجلسَ القرفصاءَ دون حركة، وسطَ البردِ والظلمة والعطش لمدةِ ساعةٍ ونصفِ الساعة كما فعلت. على العموم، لم يعدْ بإمكانها أن تصبرَ أكثر بعدَ كلِ هذا الوقت. استوتْ واقفةً على قدميها وهتفت قائلة:

"سوف أذهبُ لأشرب".

"و لكن ربما تمسكُ بكِ الساحرةُ العجوز"!

"سأموتُ من العطش".

"انتظري أكثر. سوفَ ترجعُ أمي قريباً".

لم تجبْ بسمةُ نداءات أحمد، وإنما أخذت تبتعدُ في الاتجاه المؤدي إلى باب المطبخ حتى اختفت وراء الزاوية البعيدة، وتبعها ظلها .

بدأَ القلقُ يستبدُ بأحمدَ عندما مرتْ ساعةٌ كاملة دونَ أن ترجعَ بسمة. كان عليهِ أن يبقَيها بجانبه. هي بنتٌ صغيرة لا تعرفُ شيئاً. لا بدَّ أنها وقعت في براثن الساحرة العجوز .ماذا عليهِ أن يفعلَ الآن؟ لماذا لا يهرب؟ يستطيعُ أن يتسللَ عبر باب الدار الخارجي وينتظرُ أمه على الرصيف. ولكن ماذا عن بسمة؟ أينَ هي الآن؟ متى سترجعُ أمها؟

خرجَ أحمدُ من مخبئه المظلم وأخذَ يسيرُ باتجاهِ الفناء الأمامي

Twitter: @abdulllah1994

للبيت .كانَ الحبلُ الملونُ الخاصُ ببسمة ملقىً على البلاطِ البارد. أخذَ أحمدُ يحدقُ في البابِ الموحش المؤدي إلى داخل بيتِ الساحرة لمدةِ خمس دقائق. في الأخير، عقد العزم على الدخول لبيتِ الساحرة مرةً أخرى. اتجهَ أحمدُ عبرَ دهليزٍ ضيق إلى الردهة التي تربطُ الصالة بالمطبخ والدرج. كانت "شيراني" تكنسُ أرضية المطبخ، فيما لم يكن هناكَ أيُّ أثر لبسمة.

"أين بسمة؟"

"أخذتها ماما نورة فوق، كي تعطيها بعض الحلوى".

أحسَّ أحمدُ بمثلِ القبضةِ الحديدية تهوي فوقَ صدره. لقد وقعت .

لقد وقعت هذه البلهاء في براثن الساحرة العجوز. سوفَ تأكلها بعدَ قليل. سوفَ تضعها في أحدِ الأفران التي تخفيها وراءَ دولاب ملابسها ولن تبقيَ منها عظمةً واحدة.

كانَ منزلُ الساحرةِ العجوز ينقبضُ وينبسطُ على نفسِ الإيقاع الذي ينبضُ بهِ قلبُ أحمد..

يخبرني أصدقائي، أنهم يحتفظون في مخيلتهم بصورٍ معينة، يستدعونها كلما أحسوا بحاجتهم إلى أن يستنفروا ما تبدّدَ من شجاعتهم. أحدهم يستدعي صورةَ المثنى بن حارثة الشيباني حينما

Twitter: @abdulllah1994

أخذ ينافحُ جنودَ الفُرسِ والفيلة دونَ الجسرِ كي يعبرَ آخر جنـدي مـن المسلمين. الآخر يستدعي صورةَ هنيبعل عنـدما عـبرَ بجيوشـه اللجبـة جبال الألب بعواصفها الثلجية وطرقهـا الـوعرة في خمـسة عـشر يومـاً فقط .أما أنا، فحينما أريدُ أن أستنفرَ شجاعتي، أتذكرُ صورةَ أحمـدَ ذي الست سنوات، حينما أخذ يعتلي عتبـاتِ الـدرج بخطـىً ثابتـةٍ وعـزمٍ معقود، كي يخلّصَ بسمةَ التي لم يعرفهـا إلا منـذُ سـت سـاعات، مـن براثن الساحرة العجوز.

Twitter: @abdulllah1994

طاووس مَلَك

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

عجّلَ أبو سليمان الدارمي من وقع خطاه حتى وصل إلى دارِه، ثمَّ عالجَ قفلَ بابِه بالمفتاح، وأسرعَ بإغلاقِ الشرفةِ الخشبية المطلّة على الحيّ. كانتْ الروائحُ الشهية تنبعثُ من داره وتسافر أميالاً عديدة، وكان أكثرَ ما يخشاه أن تثيرَ هذه الروائح انتباهَ جياعِ العسكرِ الذين وصلوا لتوّهم إلى الموصل بصحبةِ أميرهم عماد الدين زنكي والخليفة الهارب.

استروحَ أبو سليمان بتلذذٍ رائحةَ الطعام الزكية، وسار إلى المطبخِ وهو يحمدُ لأمه المتوفاة أن أشارت عليه بزواجِ فاطمة. كانت أمُ سليمان منهمكةً في إضافة اللمساتِ الأخيرة لصحونِها الساخنة .

"ما الذي حضرْته لنا يا فاطمة؟"

ضحكتْ أم سليمان، وأجابت دون أن تلتفتَ إليه:

"و لمَ السؤال؟ تقدّم وعاين بنفسِك".

ابتسمَ أبو سليمان برضى، وتقدّم قليلاً وهو يقول:

"أحبُ أن أسمعَها منكِ".

"مَصوصٌ ومضيرة".

"أكلتاي المفضلتان".

"عَسَى أن يحبهما ضيفُك".

سحبتْ أم سليمان صينيةَ المضيرة بعيداً عن يديّ زوجها،

Twitter: @abdulllah1994

ووقفت أمامهُ لتحولَ بينهُ وبينها.

"ما اسمُ ضيفكَ مرةً ثانية؟"

"عَديّ بن مسافر، كما ذكرَ لي أخوكِ".

"لا زلتُ لا أصدقُ كيف تسمحُ لضيفٍ لا تعرفهُ أن ينامَ وسط دارك"!

"لن ينامَ إلا ليلةً واحدة، قبل أن يشخصَ إلى جبلِ هكار".

"و ما الذي يشخصهُ إلى هكار؟"

"لا أدري! ولكنهُ من أصفياءِ الشيخ عبدالقادر الكيلاني، هذا لوحدِه كفيلٌ بتزكيتهِ عندي".

"يبدو أن إرضائك ليس سهلاً في الطعامِ وحسب، وإنما"..

علا صوتُ قرعِ البابِ فجأة. ابتسمَ أبو سليمان في وجه زوجته وهو يستدير ليغلقَ باب المطبخِ وراءه. تلفّت حولَه باحثاً عن ابنهِ سليمان، ولكنهُ لم يجدْه. عندما فتحَ الباب، رأى على عتبة الدارِ أخا زوجته القاسم، ووراءهُ شيخاً عجوزاً، قد غطتْ لحيته الكثّة نصفَ صدرِه. كانَ القمرُ يسبحُ على هيئةِ بدرٍ في الخارج، وكانت أشعته الفضية تنعكسُ على لحيةِ الشيخِ العجوز فتزيدها بياضاً ونوراً.

"السلام عليكم".

"و عليكم السلام ورحمة الله وبركاته. حللتم أهلاً ووطئتم سهلاً. تفضلّوا، تفضلّوا".

Twitter: @abdulllah1994

أنزلَ القاسمُ الشِوالَ الذي يحملهُ فوقَ ظهره، وناولهُ سليمان وهو يقول:

"سوفَ أتركُ الشيخَ عَديّ عندَك. أما أنا فسأرجعُ إلى داري، فليسَ من الحكمة أن أترك عيالي وحدهم في هذه الليلة التي امتلأت فيها الموصل بالجند".

"هلاّ لبثتَ حتى تتناولَ عشاء أختِك؟"

"في الشيخِ عديّ، بركةٌ وزيادة".

هتفَ القاسمُ وهو يمضي بعيداً عبر الزقاق ليبتلعهُ الليل. أشارَ أبو سليمان للشيخِ عديّ كي يتبعه، فابتسم ذاك في وِد. حملَ أبو سليمان الشِوال الذي يحوي متاع الضيف، بينما تبعه الشيخ عديّ وهو يحمل بين يديه بضعةَ كتبٍ وجراباً أصفر. هتفَ أبو سليمان بعد أن رأى ابنه سليمان -أخيراً- في صحنِ الدار:

"سليمان، خففْ عن الضيف واحمل متاعه عنه".

تقدّم سليمان من الضيف، وأشار نحو الجراب والكتب التي يحملها، لكنَّ الشيخ عديّ أشار بيدهِ في تمنعٍ، وهو يبتسمُ ابتسامةً مُهذبة:

"حملي ليسَ ثقيلاً، عكس الشِوال الذي مع أبيك".

"ما زالت تشتعلُ في أبيه جذوةُ الشبابِ يا شيخ عديّ".

"اسأل اللهَ أن يديمَها عليه." أجاب الضيفُ مُبتسماً.

Twitter: @abdulllah1994

وضعَ أبو سليمان الشِوال الثقيل على عتبةِ المجلس، وأشار إلى الشيخ عديّ، الذي وضعَ جرابَه الأصفر وكتبَه المعدودة فوقَ الشِوال بعناية. وقفَ سليمان وأبوه في أدبٍ بينَ يديّ الضيف، وأشارا إليه كي يتصدرَ المجلس. أحضر سليمانُ كأساً من الماء البارد، شربهُ الشيخُ العَطِشُ دفعةً واحدة. ابتسم أبو سليمان في رضى، وهتفَ وهو يجلسُ بجانب الضيف:

"كيفَ كان الطريقُ من بغداد؟"

"بل قلْ كيفَ كانت بغداد يا أبا سليمان".

"هل الأوضاع بهذا السوء؟"

"و أكثر! فبعدَ أن اقتحمَ السلطان مسعود بغداد وأباحها لجنده، ثار العيارون بسوقها وروعوا الناس، ولا تدري، هل هم ينتصرون للخليفة الراشد بالله، أم للسلطان مسعود".

"و ما الذي ينوي أن يصنعه السلطان مسعود بعد أن هرب الخليفة إلى الموصل؟"

"يتهامسُ العامةُ أنَّ السلطان مسعود والوزير شرف الدين الزينبي ينويان خلع الخليفة، وأنهما جعلا القضاة والشهود يجمعون على شرب الراشد بالله للنبيذ".

"هذا زمنٌ فاسد يا شيخ عديّ".

"هوَ كذلك. والمصيبة أن النصارى يتربصون في الرها وأنطاكية

Twitter: @abdulllah1994

وبيت المقدس وطرابلس".

"كيفَ هو الشيخ عبدالقادر الكيلاني؟"

"بحالٍ حسن. ولقد منَّ اللهُ عليه بالمال والعيال ما يغنيه عن مضنّةِ السؤال".

"لا زلتُ أذكرُ القصةَ الغريبة التي يحكيها الناسُ عن الشيخ".

"أيّ القصصِ تقصد؟"

"عندما كان مسافراً في صباه إلى بغداد، عرضَ لقافلتهم بعضُ قطاع الطريق، وسأله رئيسهم إن كان يخفي مالاً .يذكرُ الناسُ أنَّ الشيخ عبدالقادر أخرجَ مالاً كان يخفيهِ في جيبٍ داخليّ في ملابسه، ما كان لأحد أن يعثر عليه لو لم يتطوع الشيخ عبدالقادر بإخراجه. عندما سأل رئيس العصابة الشيخَ عبدالقادر عن سبب إظهاره للمال مع مقدرته على الكتمان، أجابه :لقد أوصتني أمي أن لا أكذب، والمال الذي تسرقه يقودك الى النار، أما صدقي فيقودني الى الجنة".

"الله، الله"!

"يقولون إن رئيس العصابة تاب وأناب بعد ذلك، واعتزل قطع الطريق".

"ما أكثر الذين تابوا واهتدوا على يد الشيخ عبدالقادر".

"الطعام يا أبه." قاطعهم سليمان، بعدَ أن غادرهم إلى داخلِ الدار لدقائق معدودة، ليعودَ وريقه يتحلبُ بسبب الروائح العَطِرة

Twitter: @abdulllah1994

المتطايرة من صحون والدته .

نهضَ الشيخ عديّ بصحبةِ مُضيفِه أبـي سـليمان، وجلـس معـه على خوان الطعام الحافل بالصحون والأطباق. أَعملَ أبو سليمان يدَه في طبقِ المضيرة، أما ضـيفه العجـوز، فلقـد اسـتفتح بـبعض الرطـبِ، وعندما ملأ سليمانُ صحنَه بالمَصوص، سأله:

"أيّ لحمٍ هذا؟"

"لحمُ غزال يا شيخ عديّ، لحم غزال".

"لا آكلُ الغزال." هتفَ الشيخُ عديّ بامتعاضٍ وهو يسحبُ يدَه.

نظرَ أبو سليمان باستغرابٍ نحوَ ضيفه، وسأله:

"ماذا عن الضأن؟"

"آكله".

"إذن فعليكَ بالمضيرة".

سرعان ما اشتغلت الأيدي وتعالت الأنفاس، حتى إذا مـا فـرغ الضيفُ من طعامه، أحضر لـه سـليمانُ طـستاً مملـوءاً بالمـاء الـساخن ليغسل يديه المشوبتين باللبنِ والدُهن. استأذن الضيفُ أبا سليمان كـي يأوي إلى الحجرةِ التي أعدوها له، وأخذ معـهُ شِـوالهُ وجرابـهُ وكتبَـه . عندما أقفلَ البابَ وراءَه، خرجتْ أم سليمان من دارتِها لتلمَّ الصحون مع ابنها سليمان.

فتحَ أبو سليمان شُرفة الغرفة كي يسمحَ لـبعض الهـواءِ النقـيّ

Twitter: @abdulllah1994

بالدخول. حانت منه التفاتة فلمحَ كتاباً أسوداً ملقىً على الأرض. كان الكتابُ يستلقي على عتبة المجلس، في نفس الموضع الذي تركوا فيه شِوال وجراب الشيخ. اتجهُ أبو سليمان ناحيةَ الكتاب كي يرفعه، وسرعان ما علت وجهه المتغضن علاماتُ الاهتمام والدهشة، عندما قرأَ على غلافه: كُتاب الجلوةْ. استبدَّ الفضولُ بأبي سليمان، فقام بدسِّ إصبعه وسط الكتاب، وفتحَ إحدى الصفحات، وعندما قرأَ ما تحويه، تغيّرَ لونُ وجههُ بأكملهِ حتى تحوّل إلى لونٍ أسود كالموت.

هتفَ سليمانُ وقد لاحظ التبدلَ المفاجئ الذي طرأ على سحنةِ والده:

"ما المسألة يا أبه؟"

لم يجبْ أبو سليمان. كان يحدقُ في ذعرٍ في الصفحة المفتوحة.

"ماذا دهاكَ يا أبي؟ ماذا تقرأ؟"

ابتلعَ أبو سليمان ريقه بصعوبة، وأخذَ يبحثُ عن بعضِ صوتهِ الذي خذلهُ فجأة. عندما وجده، قرأ بصوتٍ مُرتعش:

"خلقتُ الملائكة، وجمعتهم جميعاً كلَّ شيء، وأوصيتُ يوماً بأنني أنا الذي أستحقُ الصلاةَ والخضوعَ والعبادةَ وحدي. مضتْ أربعونَ ألفَ سنةٍ، ثم خلقتُ آدمَ في أحسنِ تقويم، وأردتُ أن أمتحنَ الملائكةَ فأمرتُهم بالسجودِ له. نسيَ الملائكةُ ما كنتُ أمرتهم بهِ قبل أربعينَ ألف سنة، فسجدوا لآدمَ وصلّوا له، إلا طاووساً وحدَه تذكرَ أمري،

Twitter: @abdulllah1994

فلم يسجد له. فجازيتهُ بأن سميتهُ الملكَ طاووس، وجعلتهُ رئيساً لجميعِ الملائكة، وأستاذاً مرشداً لآدمَ في الجنة".

تجمّدتْ يدُ أم سليمان، وأخذت تنظرُ برعبٍ نحوَ زوجها وهي لا تصدقُ ما تسمعه. هتفَ سليمان وقد شحبَ وجههُ حتى غادرهُ الدم:

"هذا كفر بَواح"!

تابعَ أبو سليمان:

"جعلتُ الملكَ طاووس رئيساً لجميعِ الملائكة، وسلمتُ بيدهِ مفاتيحَ اللوحِ المحفوظ، لكي يستمدَّ منهُ أوامره ونواهيه، وملكوت السمواتِ والأرض".

"هذا كفرٌ بَواح!" صرخَ سليمان، وهو يغادرُ المجلسَ إلى غرفته.

عندما عاد، كانَ يحملُ في يدهِ سيفاً مُصلتاً طويلاً. رمى أبو سليمان الكتابَ في فزعٍ، واعترضَ طريقَ ابنه الغاضب وهو يهمسُ بصوتٍ خافت:

"ماذا تنوي أن تفعل؟"

"سوفَ أقتله".

"تقتلُ ضيفَك"!

"ليسَ ضيفي، هذا كافرٌ أَشِر. ألم تقرأ ضلالاته؟"

"هوَ ينامُ في دارِك ويستأمنكَ على حياتِه".

Twitter: @abdulllah1994

"ألم تقرأ ضلالاته؟ إنهُ يقدّس الشيطانَ يا أبي، يقدّسُ الشيطان"!

"أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم".

"دعني أقتله".

"لن تنفذَ إليه إلا بعدَ أن تقتلني".

"أتنصرُ كافراً على ابنك؟"

"من كانَ يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفَه".

"أيَّ ضيفٍ هذا؟ أنتَ تُؤوي في دارِكَ رجلاً يقدسّ الشيطان"!

"اسمع أيها الأحمق، لا تتحدثْ وكأني شريكٌ لهذا المأفون فيما يقوله. إنَّ قلبي يحترقُ وَجلاً، وإني لا أدري كيف سأقفُ أمام الله لأصلي بعد أن قرأتُ هذا الكفر البواح، ولكني لن أبيحَ دمَ رجلٍ حلَّ في داري، واستأمنني على ماله ونفسه".

"إذن لنبلغْ عنهُ صاحبَ الشَرطة، وسيأمر عماد الدين زنكي بشنقه تحتَ بوابةِ الموصل".

"و لماذا يُشنق؟"

"لأنه كافر"!

"و ما شأننا نحنُ؟ اللهُ يتولاهُ بعلمه وحكمته، فإن شاء أدخله الجنة، وإن شاءَ أدخلهُ النار".

"أنتَ تخلطُ يا أبي. ألم يقاتل رسولُ الله الكفارَ حتى تعلوَ كلمةُ

Twitter: @abdulllah1994

الله؟"

"و من أينَ لنا بمثلِ رسول الله؟ من أين لنا بمثلِ رسول الله يا سليمان؟ لقد قاتلَ أنصارُ عليٍ أنصارَ معاوية باسم الجهاد، وقاتلَ أنصارُ معاويةَ أنصارَ عليّ باسم الجهاد. انظر إلى بغداد يا سليمان، انظر إلى بغداد وأخبرني، كم خليفةً قُتل باسم الجهاد؟ كم طفلاً يتّمَ باسم الجهاد؟ كم امرأةً ثُكّلت باسم الجهاد؟ أحضر لي سيفاً لا يقتلُ إلا من يستحقُ القتل، وسأقاتل".

"و لكن لا مكان للخلطِ هنا. هذا كفرٌ بواح".

"و لكنه لم يؤذنا في أنفسِنا يا سليمان".

"لقد آذانا في أقدسِ ما عندنا، لقد كفرَ بالله".

"اللهُ أعظم من أن يكونَ في حاجة سيوفنا. لم يخلق اللهُ الخلقَ إلا ليبتليهم في الدار الدنيا، ويحاسبهم في الدار الآخرة. ما أدراك، لربما تاب الرجلُ عن ضلالته بعد حين! هل تريد أن تقتلَهُ وتحولَ بَينه وبين توبته؟"

"كيف تبغي أن تقابل اللهَ يومَ القيامة حينما يسألكَ عن هذا الكافر الذي أحللتهُ دارك؟"

"لا أدري يا سليمان! ولكني لن أستطيعَ أن أقابلهُ وعلى يديّ آثار دماء ضيفي الذي استأمنني على مالهِ ونفسِه".

أطرقَ سليمانُ برأسه، وضغطَ بيده على مقبضِ سيفه في

Twitter: @abdulllah1994

عصبية، ثمَّ استدار نحو باب الدار، وخرج إلى الزقاقِ والليل... هرعَ أبو سليمان يجري وراءَ ابنه وسطَ ظلمة الليلِ الحالكة. أمسكَ بيدهِ بعد أن وصلا آخر الزقاق، وصرخ فيه:

"أين تنوي أن تذهب؟"

"إلى صاحب الشَرِطة".

"قد أنذرتك يا سليمان، فلا تعصِ لي أمراً. لم أعهدكَ إلا باراً بي وبأمك".

"و لكني لن أطيعكَ في معصيةِ الله".

"أعوذُ باللهِ مما تقول. ومن أنا حتى أعصيَ الله! فهمكَ يختلفُ عن فهمي، ولكني لا أبيحُ لكَ أن تحلَّ دم ضيفي، ولا أن تسلمَه لمن سوفَ يقتله".

سحبَ سليمانُ يده من كفِّ أبيه، وأخذ يبتعدُ حتى غيبتهُ الظلمة. صرخَ أبو سليمان:

"سوفَ أقفُ مدافعاً عن ضيفي يا سليمان. ولو دللتَ عليه الشرطة، ستسعى دون قصدٍ في هلاكي".

لم يسمعْ جواباً. كانَ أبو سليمان يقفُ بمفرده وسط الليل والبرد والعتمة. عندما رجع على أعقابه، وجد زوجته تنتظره في باحة الدار.

"أين ذهب سليمان؟"

"سيعود. إنه غاضب، ولست ألومه".

Twitter: @abdulllah1994

"لا تجعل الرجل الغريب يفرّق بينك وبين ابنك".

"لن أجعله." أجابَ وهو يضع يده المجهدة على ظهر زوجته، ليدخل معها إلى دارهما، وليغلق الباب وراءهما .

خلدتْ أم سليمان إلى النوم، أما أبو سليمان، فلقد توضأ واستقبل القبلة، ثمَّ شرع بالصلاة والابتهال بينَ يديّ الله. كان قلبهُ يرتعدُ خوفاً كلما تذكرَ هولَ الكلام الذي قرأه في ذلك الكتاب المشؤوم. أخذ يعفّرُ وجهه بين يديّ خالقه، ويدعو بدموعٍ حارةٍ أن يكون حينَ اختارَ، قد أحسنَ في اختياره. كان صوته يعلو ويهبطُ في نجاءٍ متقطع، وكان يرددُ في ألمٍ: "يا اللهُ لا اسألك رداً في قضائك، ولكن هلاّ حملتنا غيرَ عبءِ الاختيار؟ هلاّ حملتنا غيرَ عبءِ الاختيارِ يا الله؟"

حينما سمعَ صوتاً ينبعثُ وراءهُ من حجرة الضيف، سلّم من صلاته، ورسم ابتسامة عذبةً على وجهه. كانَ الكتابُ الأسودُ المدعو بالجلوة ملقىً على الأرض. انحنى أبو سليمان والتقط الكتاب، ثمَّ سارَ بخطىً وئيدةٍ إلى غرفة الضيف، وطرقَ بابَ حجرته.

"ادخل".

حينما دفعَ أبو سليمان الباب، وجدَ الشيخ عديّ يتفقدُ شِواله وجرابهُ وكتبَه.

"أظنُ أنَّ هذا لك ".

امتقعَ وجهُ الشيخِ عديّ حينما استلم كتاب الجلوة من يدِ أبي

Twitter: @abdulllah1994

سليمان.

"هل قرأته؟"

"قرأته".

سكتَ الشيخُ عديّ، وأخذَ يحدقُ في عينيّ ضيفه الغائرتين، وكأنه يحاولُ أن يستشفَ ما يجولُ في خاطره.

"هل تعلمُ أنَّ ابني سليمان، رفعَ صوته عليّ لأول مرةٍ في حياته، والسبب كتابكَ هذا؟"

لم يجب الشيخ عديّ، كان يحدقُ بلا انقطاعٍ في عينيّ أبي سليمان .

"لا أريدُ منكَ إلا شيئاً واحداً، شيئاً واحداً فقط. لقد كنتُ صريحاً معك، ولا أزال، ولقد تحدثت عن جميع ما جرى بلا زيفٍ أو تورية. أخبرني، من هو الملك طاووس المذكور بالكتاب؟ ولماذا تقدسه؟"

"الملك طاووس هو رئيس حفلة السر السبعة، ولقد خلقه اللهُ من نورِه".

"هوَ الشيطانُ إذن"!

هناكَ من يدعوه بهذا الاسم..

"و لماذا تقدسه؟ ألم يعصِ اللهَ عزَّ وجلّ؟"

"عندما أمرَ اللهُ الملائكة بالسجود، لم يكن بإمكانهم أن يعصوهُ

Twitter: @abdulllah1994

لو لم يرِد اللهُ أن يختبرَهم .لقد جعل اللهُ تعالى للملك طاووس حرية الاختيار، ولقد اختار فأحسن الاختيار، فكافأه الله على ذلك".

"إذا لم يكن الشيطان آثماً، من أين يأتي الشرُ إذن؟"

"من قلب الإنسان. بمقدورِ كل إنسان أن يختارَ بين الخير والشر، ونحن حينما ننفي الشرَّ عن الملك طاووس، نزيدُ من مسؤولية الإنسان كي يختار الأصلح".

"أنتَ لا تفهم،" هتفَ أبو سليمان بلهجةٍ محمومة، "أنتَ لا تفهمُ مقدار الضررِ الذي يترتبُ على أساطيرك هذه. لا تستطيعُ أن تنفيَ رمزَ الشرِّ تماماً، أن تحيّدَه، ثمَّ تطلبُ من الإنسانِ أن يختار! ألا ترى الدماءَ التي تسيلُ حولَك؟ ألا ترى الأموال التي تستباح؟ الأعراض التي تنتهك؟ الإنسان ليسَ قادراً على اختيار الشرِّ وحسب، بل إنه يجرؤُ على أن يختارَه ثم يدعوه خيراً! لقد قلنا بالأمسِ إنَّ هذا زمن فاسد. هل تدري لمَ هو فاسد؟ هل تدري؟ لأنَّ الإنسان لم يعد قادراً على تمييز الخير والشر. الإنسان فقدَ بصره، فقد إحساسه، فقد ضميره. لن يصلحَ حالُ الإنسان حتى يستطيعَ أن يميّزَ الخير، ويشيرَ إليه، ويقول بأعلى صوته هذا خير.. أن يميّزَ الشر، ويشيرَ إليه، ويقولَ بأعلى صوتهِ هذا شر. هذا زمنٌ فاسدٌ اختلطت به الأمور، فكيفَ تريدُ أن تنزعَ رمزَ الشرّ، ثم تطلب من الإنسانِ أن يختار؟ قل لي كيف؟"

سكتْ الشيخُ عديّ، وقد أُخذَ باللهجةُ المحمومة التي تحدث بها

Twitter: @abdulllah1994

أبو سليمان. أخذَ يتأملُ العرقَ النابضَ الذي كانَ يتراقصُ في صدغِ مُضيفهِ المعروق. بعدَ أن ضاقَ بالسكوت، توجه الشيخُ عديّ بجسده نحو شِواله ودسّ الكتاب فيه. سأل بصوتٍ هادئ:

"ماذا تنوي أن تفعل؟"

"لا شيء، أنت ضيفي وواجبي إكرامك".

"هذا هو اختيارك إذن؟"

"هذا هو اختياري".

ودعَ أبو سليمان ضيفَه العجوز، وأخذَ يراقبهُ وهو يبتعدُ ببطءٍ وسطَ رطوبةِ الفجر قاصداً جبال لالش. كانَ الجوُ بارداً عذباً، وكانت الأطيارُ تزقزقُ في السماواتِ العالية .

ستمرُ سنونٌ عديدة، وسيقتلُ بدرُ الدين لؤلؤ ابنَ الشيخ عديّ وأتباعه، وسينكلُ النصارى بالمسلمين باسمِ الصليب، وسيُقتلُ الخليفة المعزول بأيدي الباطنية في أصفهان، وستختلطُ الأمورُ حتى تصبحَ عاجزاً هل تنسبها إلى الله أم الملك طاووس أم الشيطان، ولكنَّ أبا سليمان في ذلك الفجر البارد، كان يقفُ في باحةِ داره وهو يتأملُ بسعادةٍ في ملكوتِ الله، وقد أحسَّ بأنَّ قلبه يزقزقُ مثل الطيور تماماً، وعندما استنشق الهواءَ البارد، أحسَّ وكأنه يتماهى مع هذا الكون البديع. كان يدركُ بكلِ جارحةٍ من جوارحه أنه قد اختار، وكانت كلُ ذرةٍ في هذا الوجودِ النابضِ حولَه، تؤكدُ لهُ أنه قد أحسنَ في اختيارِه.

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

الزُوكانة

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

بالأمس، كنتُ في منزلِ جدتي الجوهرة، بصحبةِ أختي وولدها الصغير. كانَ الوقتُ عِشاءً، وكنتُ أصبُّ القهوةَ الساخنةَ في فنجالها المقعّر، بينما أباعدُ عنها طبقي البرحي والروثان كي لا يفسدا معدل السكر في دمها قبل النوم. استلقت أختي على ظهرها، ووضعت ولدها فوقَ ساقيها، وأخذت تؤرجحه بحنانٍ وهي تغني بصوتٍ صافٍ :

"الزُوكانة، يا ام الديك. عيّى رجلك، لا يبيك. شرالك فستان، وقعطتيه. هذي الحمارة ما تسوى شيء".

ترقرتْ دمعةٌ نافرة من عينِ أمي الجوهرة، فتشاغلتُ عنها بصبِّ القهوة كي لا تفطنَ أني انتبهتُ لها، ولكنها هتفتْ تخاطبني:

"كانت الزُوكانة رفيقة صباي، حينما كنتُ صغيرة".

وضعتْ دلّةَ القهوة على الصينية المعدنية وهتفتُ باستغراب:

"الزُوكانة! التي بالأغنية؟"

هزّت أمي الجوهرة رأسها، وأفرغت فنجال القهوة في جوفها.

"لم أكن أعرفْ أن الزُوكانة اسمٌ لامرأة حقيقة"!

"اسمها حصة، ولكنا كنا نعيّرها بالزُوكانة".

"حدثيني عنها".

حدّقت أمي الجوهرة في قعر فنجال القهوة الذي كانت تُمسكه، بينما أخذت أصابعُها تديرهُ ببطء. بدأتْ قصتَها:

Twitter: @abdulllah1994

"كانت حصة أجمل بناتِ عصرِها على الإطلاق، ولو سألتَ أيَّ عجوزٍ تسكنُ في "سدير" عن أجمل فتيات المجمعة، ستذكرُ لك اسمين فقط: حصة والجوهرة. كان كل شابٍ في المجمعة يحلم بالزواج بإحدانا. كانت تقولُ لي: من تتزوجُ أولاً يا الجوهرة، ستكونُ عمةً للثانية. مرّت السنون، وتقدم جدكَ عبدالله في طلب يدي، أما حصة، فلقد تزوجها ابن قاضي المجمعة، منصور.

كان منصور من عائلةٍ ميسورة. كان قادراً على أن يُسكنها في بيتٍ كبيرٍ نسبياً، يقع بجوار المسجد. كانوا يملكون في حوش دارهم أربعٌ أغنامٍ وخمس دجاجاتٍ وديك. بعد مضي ثلاثة أشهر من زواج حصة، عقد منصور عزمهُ على السفر إلى الأحساء كي يبتاع بعض ما يتّجرُ به، ووعدها بإحضار إحدى الجلابيات المطرزّة التي اشتهر أهلُ الأحساء بصنعِها. سافرَ منصور في بداية رمضان إلى الأحساء، وترك زوجته وحيدةً دونَ أن يدري أنها حامل في شهرها الثالث.

سرعان ما دَرَى جميع أهل المجمعة بحمل حصة، وأشفقوا على هذه المسكينة التي ذاقت من أعراض الحمل ما لم تذقه امرأة قبلها. كانت في شهرها الثالث لا تستطيعُ أن تضع شيئاً في فمها. كانت تتقيأ بمجرد أن تشمَّ رائحة الطعام، أو تُذكر لها سيرته. كانت أجساد النساء تنتفخُ وتتكور مع الحمل، بينما أخذ جسدُ حصة يهزلُ ويضعف حتى

Twitter: @abdulllah1994

بانت ضلوعها. كان كل ما تستطيع صنعه هو شرب الماء، كي لا تهلك من الجفافِ والعطش.

في الشهر الخامس من الحمل، بدأ بطنُ حصة ينتفخ بطريقةٍ سريعة ومرعبة. كانت المسكينة لا تقوى على حملِ نفسها، وكانت لا تجدُ ثوباً يصلحُ لها كي تلبسَه. كانت الثياب الفضفاضة تبدو مضحكةً على جسدها الهزيل، بينما كانت عاجزةً عن لبس الثياب الضيقة بسبب بطنها المنتفخ. عزفت جميع الفتيات عن زيارة حصة آنذاك، والسببُ مزاجُها السوداوي وطبيعتها العاطفية التي كانت تنتقلُ بها من الصراخ الحاد إلى البكاء، دون إنذار.

في الشهر السادس، رجعَ منصورُ من الأحساء. كان محمّلاً بمختلف البضائع الغريبة والجديدة، وكان يحملُ في يده جلابية حصة المطرزّة. لم تكن الفرحة تسعه عندما علم بحمل حصة، ولقد قام بتقبيلِ رأسها، بعد أن قدم الجلابية -التي وعدها- هديةً لها. سارعتْ حصة إلى غرفة النوم، وأدخلت عنقها في جيب الجلابية الجديدة، وأذرعها عبرَ أكمامِها، ولكنَّ بطنها المنتفخ كان عائقاً يمنعُ أن تنزل جلابيتها لتغطي ما تحته. مزّقت حصة الجلابية في ثورة غضب، وأقفلت الباب وراءها، وأخذت تبكي دون انقطاع لمدة أسبوع كامل.

في الشهر السابع، دهمت آلام المخاض حصةَ دون إنذار. أسرعَ منصورُ يعدو وسط الليل إلى إحدى عجائز عائلته، وأحضرها كي

Twitter: @abdulllah1994

تساعد حصة في ولادتها المُبكرة. كان جسد حصة يشتعلُ ناراً، ولقد جرى منصور ثلاث مرات إلى "القليب" كي يملأ الدلاء بالماء. كان قمرُ مُحرم يكتمل بدراً. وضعت العجوز يدها فوق ركبتيّ حصة المرتعشتين، وأمرتها بأن تدفع، أن تدفع وتدفع وتدفع كلما أحست بنوبات الآلام تجتاحها. في الأخير، تمكنت حصة من أن تضع مولودها، ولكنها لم تسمع صوت بكائه بعد الوضع. كانت العجوز منكبةً على الجنين المولود، وهي تنظر نحوَه بفزع. صرخت حصة: أريني طفلي. هزّت العجوز رأسها: عظّم الله أجرك. صرخت حصة ثانية: أريني طفلي. هزّت العجوز رأسها بإصرار: لا فائدة، إنه ميت. صرخت حصة بهستيرية: أريني طفلي.

رفعت العجوز الطفل الميت بيدين مرتعشتين، وأخذت حصة تحدّق برعبٍ في مولودها. كانت كفّه اليمنى مشقوقة إلى نصفين، بينما تشابكت أصابع يده اليسرى بشكل بشع. كانت أمعائه تتدلى من فتحةٍ صغيرةٍ في بطنه، وكانت شفته العليا مشقوقة من منتصفها، أما أنفه المائل فلقد كان مغروزاً في جبهته. أحست حصة بالفزع والرعب والاشمئزاز، ولكنَّ أكثرَ ما أصابها بالرعب كان ذاك النتوء الأحمر البشع الذي يعلو رأسَ وليدها كعُرفِ الدِيك.

اشتدت الحمى بحصة تلك الليلة، ودخلت في إغمائة طويلة. عندما أفاقت، كان الظلام يملأ غرفتَها، وكانت العجوز تنام مجهدة

Twitter: @abdulllah1994

على حشيةٍ بجانبها. هرعت حصة نحو حوش دارهم، وسحبت إزميلاً كان يستخدمه زوجها منصور في حرث الأرض. أخذت حصة تعدو بين المنازل وهي عارية الرأس حتى انتهت إلى المقبرة. هناك، قامت حصة بحرث التربة التي تحوي جثةَ وليدها، وعندما وجدته، قامت بتمزيق جثته البشعة إلى أشلاء بواسطة الإزميل الحديديّ.

قضت حصة مدةَ النُفاس في بيتِ أهلها، وعندما انقضت الأربعون عادت إلى دار زوجها. قام منصور بتطييب خاطرها، وأخذ يتحاشى ذكر حملها أو جنينهما الميت .نامت حصة بجانب منصور في أول ليلةٍ لها بعد رجوعها، في نفس تلك الغرفة التي وضعت فيها .

عندما انتصفَ الليل، سمعت حصة أصواتاً غريبة أيقظتها من النوم. حدّقت حصة جيداً في الظلام، وعندما تبيّنت الشيء الذي يقف بين ساقيها، صرخت في فزعٍ بأعلى صوتها. كان الديك الذي يحتفظون به في حوشِ دارهم يقفُ بجرأةٍ بين ساقيها وقد أمال رقبتَه، وكأنه يحدّقُ في رَحِمِها. استيقظ منصور مفزوعاً من نومه، وعندما تبيّن سبب فزعها أخذ يهدئها ويطيّبُ خاطرها. صرخت حصة في وجهه: لا بدَّ أن تذبحَ الديك. ولكن منصور استطاع أن يداريها وأن يصرف انتباهها عن هذه النية الغريبة، حتى أعادها إلى النوم.

في الليلة الثانية، دخل الديكُ مجدداً غرفة حصة. كان منصور يغطّ بالنوم بجانبها، بينما لم تستطع هي أن تنام، وكأنها كانت تنتظر

Twitter: @abdulllah1994

هذه الزيارة المرعبة. اقتربَ الديك متمايلاً حتى وصل إلى مرقدها، وعندها همسَ في أذنها: "أنتِ قاتلة".

صرخت حصة بأعلى صوتها حتى أفاق منصور من نومه، ورأى الديك يهربُ فَزِعاً من باب غرفة النوم. كانت حصة ترتجفُ بفزعٍ في مرقدها وهي تبكي بهستيرية. لم يجد منصور حلاً أمامهُ إلا أن يذبحَ الديك.

في الليلة الثالثة، دخل الديكُ مجدداً غرفة حصة. هذه المرة كان شكله مختلفاً. كان على هيئة جنينها الصغير، وقد وقفَ على قدميه الضعيفتين، وأخذ يتقدمُ نحوها متمايلاً، وأمعاؤه تتدلى من بطنه. لم تكن قادرةً على أن تحددَ ما إذا كان هو جنينها أم الديك أم الشيطان! اقتربَ هذا الكائن البشعُ من مرقدها حتى أحسّت بأنفاسه العطنة تلفح خدها .همس قائلاً: الرجل النائم بجانبك هو من دنّس أحشائك، الرجل النائم بجانبك هو الذي وهبكِ الشيطان. عندما صرخت حصة بأعلى صوتها، هرب الكائن البشعُ بسرعةٍ وصفق الباب خلفَه.

أصبح الكائن البشع يزورها يومياً، وأصبحت كلماته المهينة تزدادُ جرأةً وقذارة كلَّ ليلة. لم يعد بإمكان منصور أن يحتملَ نوبات الفزع التي تصيب زوجتهُ وتفسد نومه، فهجر مضجعها، وأصبح ينام وحيداً في غرفةٍ أخرى. كانت حصة تقفل باب غرفتها كل ليلة كي

Twitter: @abdulllah1994

تمنع هذا المخلوق البشع من الدخول، ولكنّ ذلك لم يكن يمنعه من زيارتها يومياً في نصف الليل. كانت كلماته بشعةً وغريبة ومؤذية، وكان يزعمُ أنَّ زوجها منصور دفعَ أموالاً طائلة لإحدى المشعوذات في الأحساء كي تحوّل جنينها إلى ديك. لم تعد حصة تكتفي بالصراخ، بل صارت تشتمهُ وتنهره وتحاول أن تطرده دون فائدة. حاولت مرةً أن تضربهُ بواسطة عصا خشبية خبأتها تحت مرقدها، ولكنه انتزعها من يدها، وانهال عليها ضرباً بين فخذيها.

و في ليلةٍ مظلمة، بعد أن خرج الكائن البشع من غرفة حصة وتركها نهبةً للأفكار والأحزان، قامت حصة بدفع باب غرفتها، وسارت بقدميها الحافيتين إلى الحوش. استطاعت أن تجد الإزميل الحديدي الذي خبأه زوجها خلف حظيرة الدجاج. اقتحمت حصة غرفة زوجها منصور، وعندما فتحَ عينيه مفزوعاً، رأى الإزميل الحديدي يهوي باتجاهه في سرعة، ثم أسلم الروح.

تسامعَ أهل المجمعة بهذه الجريمة المُنكرة، وقاموا برمي حصة في غرفةٍ مقفولة تقعُ وراء المسجد. طاشَ عقل القاضي عندما رأى جمجمة ولده المهشمة، وكان الناس يحاولون أن يصرفوه عن البتّ بأمر حصة حتى يصلي على ابنه ويدفنه تحت التراب. بعدَ أن سلّمَ الإمام من صلاة الفجر، سمع الناسُ أصواتاً عنيفة تصدرُ من الغرفة الواقعة وراء المسجد. اندفع الناسُ نحو الغرفة -و كان فيهم جدكَ عبدالله- وعندما

Twitter: @abdulllah1994

فتحوا الباب، وجدوا حصة ميتةً على الأرض، وبجوارها كائن بشعٌ منحورٌ من رقبته، كانت يده اليمنى تمسك بخنجرٍ مُدبب، وعلى رأسهِ نتوءٌ أحمر غريب، كان يلمع وسط الغرفة كعُرفِ الديك".

Twitter: @abdulllah1994

لماذا يُكثرُ أهلُ الرسِ من أكلِ الحبحر؟

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

-١-

ياهلَ الحزمِ يا نِعم الذِخيرة ... إن لِفاكم من البَاشا علامِ
أدعوا الله ولاتدعون غِيره ... واعرفوا مامِن المِيَتَه سَلامِ
الفَرنجي إلى قُمنا نِكيله ... تِلفظه مِثلِ سِيقانْ النعامِ
مَا نقلنا السيوف اللّي شِطِيره ... كُود للكون في وقتَ الزحامِ

موضي الدهلاوي

كانَ الأميرُ عبدالله الدهلاوي يطوفُ ببيوتِ ودروبِ الرسّ، وقد شغلَ بالهُ أمرُ تحصينِها، وتقادمُ سورِها الذي بناهُ هدّيب بن عويص من قبله. كانَ يرى ضرورةَ تعزيزِ التحصيناتِ، وخصوصاً بعدَ أن اكتوت مدنُ القصيمِ وقراها بالحروبِ الطاحنة التي جرت بين ابن سعود وطوسون الذي أرسله والدهُ لغزو نجد والقضاء على عبدِالله بن سعود في معقلهِ الحصين بالدرعية.

بعدَ أن فرغَ الأمير عبدالله الدهلاوي من جولتهِ المسائية رجعَ إلى دارِه مرهقاً ونام. في منامِه، رأى شيخاً كبيراً طاعناً في السنِ، يقتربُ نحوَهُ متكئاً على عصىً غليظةٍ أحكمَ إمساكَها. هتفَ الشيخُ العجوز:

"أخبرني، كيف تريدُ حمايةَ الرسِّ يا عبدالله؟"

"سوفَ أبني سوراً جديداً حولَها لأزيدَ من تحصينِها"!

"لا يكفي يا عبدالله. خذ الشور من راعي العلم والشور. لقد

Twitter: @abdulllah1994

هاجرتُ من الرسِّ في زمنِ القحطِ والجوع، وسكنتُ غريباً في دار قومٍ ضايقوني وأسقوني ضروبَ المهانةِ والذل. كانوا يسرقون حلالي، ويضيّقونَ عليّ، ويؤذونَ زوجتي، دونَ خطأٍ أجنيه، أو ذنبٍ ارتكبُه. عندما رزقني الله بولدٍ، كنتُ أرجو أن يكونَ لي سنداً يكفيني غيَّ صغيرِهم وتجبرَ كبيرِهم، ولكنهم استمروا على غيهم. عندما رزقني الله بولدٍ ثانٍ، ارتدعَ أكثرُهم ولكن الشِرارَ منهم لم يرتدعوا. عندما رزقني اللهُ بثالثٍ، كفّوا كما يكفُ الذئبُ عندما ينبحُ في وجهِهِ كلبٌ أهوج. ثلاثة يا عبدالله. إذا أردتَ بناءَ السورِ فعليكَ بثلاثة. لا تنس كلامي يا عبدالله ".

تقولُ الأسطورةُ إن الأميرَ عبدالله الدهلاوي بمجردِ أن استيقظَ من النومِ، ذهبَ إلى رجالاتِ الرسِ وأخبرهم عن عزمهِ بناءَ سورٍ عظيمٍ يتكونُ من ثلاثِ جدرانٍ حولَ الرس. تحمّسَ الرجالُ لفكرةِ أميرِهم، وسرعانَ ما بُنيت الجدرانُ الثلاثةُ من لَبنِ الطينِ المخلوط بالتبن، ومُلئت المسافات التي تفصلُ بينَ الجدرانِ بطبقاتٍ وأكوامٍ من الرمل. استقدم الأميرُ عبدالله رجلاً من البكيرية يُدعى فريح، عُرفَ بمهارتهِ في البناءِ والتحصين، فأقامَ مع أهلِ الرسِّ مرقبهم الشهير الذي يرتفعُ أربعينَ متراً نحوَ السماء.

كانَ أهلُ نجدٍ والقرى المجاورة يتندرونَ بالتحصيناتِ المبالغ بها، والتي اتخذها أهلُ الرسِ دونَ سببٍ ظاهر. ولكن سرعانَ ما عمَّ

Twitter: @abdulllah1994

الطوفان، وزحفَ إبراهيم باشا في نفسِ السنة بجيشٍ لم يعهد أهلُ نجدٍ لقاءَ مثله. كانَ الجيشُ مكوناً من أربعةِ آلافِ راجلٍ، وألفٍ ومئتين فارس، ومدججاً بالمدافعِ والقَبَسِ والقنبر. أخذت قرى نجد تتساقطُ أمامَ هذا الجيشِ اللجبِ، حتى عمَّ الرعبُ، وكثرتْ الأراملُ، وكسا السوادُ كلَ بيت.

هبَّ الإمام عبدالله بن سعود للقاء جيوش ابراهيم باشا في الحناكية، ولكنه هُزم هناك، ولجأ هارباً إلى عنيزة، بعدَ أن أرسلَ حاميةً خاصة إلى الرسّ، بقيادةِ حسن بن مزروع والهزّاني. سرعانَ ما زحفَ إبراهيم باشا وحاصرَ الرسّ، مطالباً أهلها بتسليمِ الحامية، وفتح أبواب المدينة أمامَه، دونَ قيدٍ أو شرط.

تحصّن رجالُ الرسِ داخلَ سورِ مدينتهم، وانهالت عليهم قذائفُ المدافعِ مصحوبةً بالقبس، وكأنها مطرٌ مشتعل، ناهبةً سورَهم وَبيوتهم وأرواحَهم، ولكنّ رجالَ الرسِّ صمدوا كما صمد سورُهم، وتحلّقوا حولَ أميرهم منصور بن عسّاف الذي جُرحَ أثناء دفاعه عن المدينة، ليستلمَ أمورَ الحربِ من بعده قاضي الرس الشيخ قرناس بن عبدالرحمن، الذي خلعَ ثوبَ وعمامةَ القضاء، ليتسربلَ بلأمةِ وثيابِ الحرب .

مضت الليالي والأيام، وأهلُ الرسِ لا يستسلمون ولا تهبط هممُهم، وكلما انهارَ جزءٌ من السورِ في النهار، بادروا إلى بنائه في

Twitter: @abdulllah1994

الليل، وكلما سقط عليهم قبسٌ من السماءِ، أسرعوا باطفائه والاستفادةِ من ملحِه في تحضير المفرقعاتِ والبارود.

كانوا يتطلعون نحوَ الأفقِ وراءَ سورِهم، أملاً أن يرسلَ الإمام عبدالله بن سعود لهم مدداً، أو أن يبادرَ إخوانهم في المدنِ الأخرى من القصيم إلى نجدتِهم. ولكن الأيام مضتْ، والأفقُ بقيَ خالياً إلاّ من جنودِ وعساكرِ إبراهيم باشا المعسكرة في الجهةِ الجنوبيةِ والشرقيةِ منَ السور. وعندما طالت المدة، توقفوا عن التطلّع إلى الأفق، وانصرفتْ أنظارهم إلى سورِهم وقائدهم الشيخ قرناس، إذْ عرفوا أن خلاصهم مرهونٌ بصمودهم، وأنَّ الفرجَ الحقيقي لن يأتيَ إلاَ من داخلِ السور.

-٢-

الآنَ عرفتُ أيَّ فكرةٍ مؤرقةٍ
كانت تعجّلُ من خطوِه
وَ لماذا كانَ ينظرُ نحوَ النهارِ
بمثلِ هذه النظرةِ الحزينة
الرجلُ قد قتلَ المرأةَ التي أحبَها
وَ لذا عليهِ أن يموت.
أوسكار وايلد

عندما انتهى الشيخ قرناس من صلاة الفجر، انصرفَ إلى بيتهِ الواقعِ في الجهة الشرقية من السور. كانَ الجوُ صافياً، هادئاً، تستطيعُ

Twitter: @abdulllah1994

أن تسمعَ فيهِ تغريدَ الحمائم وغناءَ العصافير. لم يكن الشيخُ قرناس غريراً ليطمئنَ لهذا الوضع، ففي أي لحظةٍ كانَ يتوقعُ أن يقطعَ صفاءَ الجوِ دويُّ المدافعِ ونارُ القبسِ المتساقطةِ من السماء. صاحَ الشيخ قرناس عندما أشرفَ على دارِه:

"هل جهزتِ الحليب يا رقيّة؟"

ظهرت زوجةُ الشيخ قرناس وهي تحملُ سطلين ملأتهما بالحليب الساخنِ الذي لم يغادرْ ضرعَ الناقةِ إلا للتوّ. كانت فقاقيعُ الحليبِ تتجمعُ لتلتحم، ثمَّ تهاجرُ إلى حافة السطلِ لتختفي وتنفجر هناك. ناولتْ رقية الشيخَ قرناس سطلاً من الحليب، بينما عهِدت بالآخر لصبيٍ يافعٍ من صغار الحيّ.

"عافاكِ الله".

"وَ عافاك، سطلٌ لعبدالكريم وسطلٌ لبقيةِ الرجال".

نظرَ الشيخُ قرناسُ باستغرابٍ نحوَ رقية، ثمَّ انفجرَ ضاحكاً بأعلى صوته .

"من أخبركِ بأمرِ عبدالكريم؟"

"محمد وبقية الصبية. يقولونَ إنه يُفرغُ الحليبَ في معدتِهِ، وكأنه يملأُ قليباً خاوية. لم يصفرّ لون ناقتِنا، ولم يدركْها الإمحال، إلا بعدَ مجيئهِ مع الحامية".

"اتقِ الله يا امرأة! لم تصفرّ الناقة، ولم تهلك الماشية، إلا بسبب الحصارِ الذي يضربهُ الأتراكُ على سورِنا، والذي منعنا من أن نرعى

Twitter: @abdulllah1994

وأن نسرحَ بالحلالِ والغنم".

ابتسمتْ رقية ابتسامةً متألمة، اعتادتْ أن تستحضرَها كلما ذُكِرَ أمرُ الحصار.

"هل صحيحٌ ما يُروى عن الرجل؟"

"أيّ رجل؟"

"عبدالكريم الدكسي".

"وَما الذي سمعته عنه؟"

"يقولونَ إنهُ فرَّ من قبيلتِه بعدَ أن قتلَ زوجتَه"!

"ما أكثرَ ما يتقولُ الناسُ من الباطل"!

"وَلكن إن لم تكن القصةُ صحيحةً، لماذا لا يعرفُ أحدٌ أصلاً لهذا الرجل؟"

"لكلِ رجلٍ سرٌّ يخفيه، والله أعلمُ بما تضمرُ القلوب. سوفَ أذهبُ الآن، هل توصيني أيَّ شيء؟"

"حفظكَ الله. انتبه لنفسِك".

حملَ الشيخُ قرناس سطل الحليب، وانطلقَ بصحبةِ الصبيّ الصغير إلى مقرِ الحامية خلفَ المسجد. منذُ أن انتهى شهرُ رمضان، والشيخُ قرناس يحملُ الحليبَ الساخنَ كل يومٍ بعدَ صلاة الفجر، كي يُسقيَ وليتعهدَ بالبرِّ هؤلاء الرجال الغرباء الذين شاركوا أهل الرس دفاعهم المستميت عن مدينتهم. كانت لكلِ رجلٍ من أولئك الرجال قصةٌ يرويها، عن أمٍ تركَها خلفَه، أو عيالٍ ينتظرونَ رجوعه، ما عدا

Twitter: @abdulllah1994

ذاك الرجل الأسمر الطويل، الذي يُدعى بين أصحابِه بالدكسي.

رغم أنهُ كانَ أكثرَ أصحابهِ صمتاً واجتناباً للناس، إلا أنه جذبَ انتباهَ الشيخ قرناس منذ أولِ يومٍ لوصول الحامية إلى الرسّ. ما زال الشيخُ قرناس يتذكرُ قامته الفارعة فوقَ حصانه، حينَ دخلَ خلفَ حسن بن مزروع -قائد الحامية- في أولِ يومٍ لهم في الرسّ. حاولَ الشيخُ قرناس أكثر من مرةٍ أن يتجاذبَ أطراف الحديث معه، ولكن الرجلَ كان كالصخرةِ المُصمتة، قد يُجيبُ بكلمةٍ أو كلمتين، ليرجعَ إلى سكوته الغامض، وإلى تعهدِ بندقيتهِ الطويلة، تلك البندقية التي أردتْ برصاصِها أكبرَ عددٍ من الجندِ الأتراك.

عندما شارفَ الشيخُ قرناس مقرّ الحامية، استقبله الهزّاني واستلم منه سطلَ الحليب.

"السلام عليكم".

"وَ عليكم السلام ورحمة الله يا شيخ قرناس. ما هذا كله؟ كلّفنا عليكم يا شيخ".

"حقٌ وواجب. أحضرتُ معي سطلاً آخرَ أيضاً قال الشيخ، وهو يلتفتُ ناحيةَ الصبيِ الذي كانَ يتعثرُ بالسطلِ الذي ثَقلَ عليهِ حملهُ بعدَ قطعهِ كل هذه المسافة.

"كيفَ هوَ الوضعُ على الجانب الآخر من السور؟"

"لا أدري !مدافع الأتراك لا زالت تدوّي بينَ وقتٍ وآخر، إلاّ أنَّ الحركةَ كأنها خفّت وسطَ معسكرهم".

Twitter: @abdulllah1994

"هل تظنُ أنهم يدبرونَ أمراً جديداً؟"

"لستُ أطمئنُ لهذا الهدوء. على كلٍ هناكَ رقيبةٌ من رجالي أضعهُ ليلَ نهارٍ كي يرقبَ ما يقومُ به الترك".

"وَ من رقيبتكَ اليوم؟"

"عبدالكريم الدكسي".

"ألا ينامُ ذاكَ الرجل؟"

"هو كالذئب، ينامُ وعيناهُ مفتوحتان".

"حتى الذئبُ يحتاجُ إلى أن يرتاحَ وينفّسَ عن نفسِه. أفرغ السطلَ بين رجالك، وسأسيرُ بالباقي إلى عبدالكريم".

"استرح يا شيخ. سوفَ أرسلُ أحدَ رجالي كي يقومَ بذلك".

"بل سأذهبُ بنفسي. أريدُ أن أحدثَ عبدالكريم في أمرٍ خاص".

"الأمرُ ما رأيت. أنا متأكدٌ أنه سيسرُّ كثيراً عندَ رؤيةِ الحليب " علّقَ الهزّاني وقد افترَّ ثغرهُ عن ابتسامةٍ عريضة.

حملَ الشيخُ قرناس ما تبقى من الحليبِ وسار متجهاً إلى المرقبِ المربعِ الواقع بجوار المسجد. لم يكن المرقبُ بعيداً عن موقعِ الحامية. صعدَ الشيخُ قرناس المرقب، وبمجردِ أن دهمَ المكان، إذا بفوهةِ بندقية عبدالكريم مُشرعةٌ في وجهه. ابتسمَ الشيخُ قرناس ومدَّ يدهُ بسطلِ الحليبِ قائلاً:

"جئتكَ بما يبلُ لكَ ريقَك".

Twitter: @abdulllah1994

أنزلَ عبدالكريم كعبَ بندقيتهِ الثقيلة، ومدَّ يديهِ ليمسكَ بسطل الحليبِ الدافئِ ويرفعه باتجاهِ شفتيهِ اليابستين وشاربه الكثّ. غابَ وجهُ عبدالكريمِ عن مرأى الشيخ قرناس للحظات قصيرةٍ كان يتخللها صوتُ الحليبِ وهو يهوي على دفعاتٍ وسطَ جوفه، حتى إذا ما انقطعَ الصوتُ ونزلَ السطلُ، إذا بوجهِ عبدالكريمِ وقد تحوّل شاربهُ إلى اللونِ الأبيضِ بالكامل.

"أكرمكَ الله".

"صحّةٌ وعافية. كيفَ هو الوضعُ عندَ الأتراك؟"

"حركةٌ مريبة تدورُ في معسكرِهم".

"ألم تكتشف ما ورائها؟"

"ليسَ بعد".

"منذُ متى وأنت تراقب؟"

"منذُ البارحة".

"ألم تنم بعد؟"

"ليسَ بعد".

"كيفَ تجدُ الرسَّ يا عبدالكريم؟"

"كغيرها من المدن".

"ألم يطبْ لكَ المقامُ هنا؟ لاحظتُ أنك تستبسلُ في الدفاعِ عنها، وكأنكَ أحدُ أبنائها".

"هذا هو عملي الذي أتقاضى عليهِ أجراً".

Twitter: @abdulllah1994

"ماذا تنوي أن تعمل عندما ينفكُ الحصارُ بإذن الله؟"

"سوفَ أذهبُ حيثُ ذهبت الحامية".

"وَ ستتركُ هذا المكان الذي احتضنكَ ودافعتَ عنهُ وكأنك أحد أبنائه"!

سكتَ عبدالكريم، وأطرقَ برأسهِ إلى موضعِ قدميه. لم يكن الشيخُ قرناس ينتظرُ إجابةً يسمعها من عبدالكريم، بل أكمل مُعتزماً أن يتممَ الأمر الذي كان يجولُ بخاطرهِ منذ الفجر:

"اسمع يا عبدالكريم، أنتَ رجلٌ شجاع، ولقد رأيتكَ أكثرَ من مرةٍ وأنتَ تقفُ بجسدِك في مرمى الرصاصِ وكأنكَ مجنونٌ أو رجلٌ يريدُ أن يُقتل. أنا أفهمُ تصرفكَ هذا، فرجلٌ مثلكَ ليسَ لديهِ ما يقيّدهُ من الزوجِ والعيال. هناكَ أقوامٌ يهبونَ أنفسهم للحرب، لا يمكنهم أن يعيشوا بسعادةٍ بعيداً عن شفيرِها أو نارها، ولكنها تلقحهم وتستهلكهم، حتى يُقتلوا أو يفيقوا على أنفسهم وقد شابوا دون أن يخلّفوا ولداً يحملُ اسمهم ويخلّد ذكرهم. أنتَ من هؤلاء القوم يا عبدالكريم. قد تستغربُ كلامي هذا الذي قد يفهمه غيرك على أنه تثبيطٌ للعزيمة، لا سيّما أنه صادرٌ من قائد الحرب وأول من يدافع عن أسوار هذه الأرض التي نشأتُ فيها وأكلتُ من خيراتِها، ولكني أحبكَ يا عبدالكريم، وأرجو لكَ أن تبقى بعد انتهاء الحصار، وأن يصبحَ لكَ من الولدِ والخلفِ ما تقرُ به عينكَ، ويبسمُ له ثغرك".

حاولَ عبدالكريم أن يفتحَ فمَه وأن يقولَ شيئاً بعدَ أن فاجأه

Twitter: @abdulllah1994

حديثُ الشيخِ قرناس الذي خرجَ من شفتيهِ كالإعصار دفعةً واحدة، ولكن الشيخَ أردفَ قائلاً:

"لا أريدُ منكَ الآن رداً أو جواباً. فكّر بالموضوع، وإن استصوبتَ كلامي وعقدت العزم، أخبرني وسأجدُ لكَ فتاةً تليقُ بك".

لو أنَّ أيَّ أحدٍ صعد المرقب بعدَ خروجِ الشيخ قرناس منه، سيجدُ عبدالكريم في حالةٍ يُرثى لها، وقد تجمّدت عضلاتُ وجهه، وفغرَ فاه في بلاهة، وكأن سطل الحليبِ الفارغِ دُلقَ عليهِ بالكاملِ للتوّ .

-٣-

"طاح امشيطِك يا العروس إلقطنه يا خَوَاتِي"
من ألعاب البنات في الرسّ

كادت منيرة أن تصاب بالجنون بسبب الطنين. منذ خروجها من بيت صاحبتها موضي الدهلاوي، والطنين يحاصرها على طول السور. أخذت تتلفتُ يمنةً ويسرةً، وتطلعتْ إلى الأعلى وإلى موضعِ قدميها، دون فائدة. كانت متيقنةً بأنَّ هناكَ شيئاً غيرَ طبيعيٍ هذه الليلة. لم تعتد أن تخونها حواسُها، ولطالما أخبرها زوجها المتوفي بأن عينيها تستطيعانِ أن تميزا العبسة فوقَ قمة ساق، وأن أذنيها تسمعانِ دبيبَ النملِ فوق الرمل. كانت تحسُ أنَّ الهواءَ من حولِها يهتزّ، وكأنها أدخلت رأسها

Twitter: @abdulllah1994

وسطَ خليةِ نحل!

هيَ متأكدةٌ أنَّ مصدرَ هذا الشعورِ الغريب ينبعُ من مكانٍ ما حولَها. لا يمكنُ أن يصدرَ كلّ هذا الطنينِ من داخلِ رأسها. لقد أزعجها حديثُ موضي الدهلاوي عندما ذكرت الزواج وأهميته للأرملة، ولقد غادرتها بعد صلاة العشاء ورأسها يطنّ بالأفكار. ولكن لا! لا يمكن أن يكون هذا الشعور نابع من رأسها .

انحنتْ منيرةُ بجسمِها إلى الأرضِ، وألصقت إحدى أذنيها بالرمل. سرعانَ ما تأكدَ لها حدسُها؛ هذا الطنينُ الذي شعرت به منذ خروجها، والذي أخذ يلاحقها على طول السور يصدرُ من الأسفل. أطبقت بيدِها اليسرى فوقَ أذنها الثانية، وكتمت نفسَها، ثم استغرقت في الإنصات؛ الصوتُ بالتأكيد يصدرُ من الأسفل. كان وقع الصوت يتعالى وينخفض، كان يصدرُ من مكانٍ بعيد، وكأنهُ وقعُ طرقاتِ بابٍ تحتَ الأرض.

عندما انتصبت منيرةُ على قدميها، واعتدلت من انحنائتها، كادت أن تقفزَ مذعورةً من مكانِها بعدَ أن شاهدتْ خيالَ رجلٍ طويل وسط الليل. كان الرجلُ يمسكُ بندقيةً طويلة، ويحدق نحوَها مباشرة. نهرت منيرةُ الرجلَ بصوتٍ عالٍ:

"بسم الله الرحمنِ الرحيم، ألا تتنحنح؟ كادَ قلبي أن يطيرَ بسببك".

"ما الذي كنتِ تفعلينه؟ "

Twitter: @abdulllah1994

"هناك صوتٌ يصدرُ من الأسفل".

"من الأسفل؟"

"كما لو أنَّ أحدَهم يطرق باباً بعيداً".

انحنى عبدالكريم برأسه نحو الأرضِ وألصق أذنَه بالتراب. في البداية لم يسمع شيئاً، ولكن عندما أصاخ بسمعه قليلاً بدأ يستشعرُ صوت الطرق البعيد الذي وصفته المرأة له. التفتَ عبدالكريمِ بجذعهِ نحو السور الجنوبي وأخذ يتطلعُ باهتمامٍ وقلق .

"هل تعرفين بيت الشيخ قرناس؟"

"بالتو انصرفت من بيت أخت زوجته".

"اذهبي إليه حالاً واخبريه بما سمعتِ. قولي له، أن عبدالكريم ذهب يستطلعُ الأمر خارج السور، وأنه سيلقاكَ عند عودتِه عند المرقب".

"تقصد أن الصوت صادر من الأتراك؟"

لم يجبها عبدالكريم، وإنما انسلَّ بخفة وسرعة إلى الجهة الجنوبية للسور، حيث يوجد الجزء المتهدم منه، والذي يواظب رجال الهزّاني على حراسته. عندما رأى مطلقُ عبدالكريم، أرادَ أن يستفهم منه سبب قدومه، ولكن عبدالكريم أشار عليه بالصمت، وتسلل بخفةٍ من خلال الفتحة المتهدمة إلى الخارج .

كان القمرُ نصفَ بدرٍ في السماء، والرياح توقفت عن الهبوب منذ مدة. أخذ عبدالكريم يعدو بركبتين منثنيتين وكأنه جربوع، وفوهة

Twitter: @abdulllah1994

بندقيته موجهة إلى الأمام والأعلى، كي يستخدمها بسرعة إذا ما فاجأه تركيٌ على غفلة. عندما اقترب من أحد الطعوس الرملية انكبّ على بطنه، وأخذ يزحفُ على مرفقيه وركبتيه حتى استطاع أن يطل من مكمنه على الأتراك. كانوا يجتمعون على بعد نصف ميلٍ تقريباً من معسكرهم حولَ حفرةٍ حفروها. لم يستطع عبدالكريم أن يتبين ملامحهم بوضوح وسط العتمة، ولكن خيّل لهُ من تلك المسافة أن الرجالَ الأتراك يروحونَ ويجيؤون من الحفرة وهم يضمون براميلاً إلى صدورهم. ألصقَ عبدالكريم أذنه بالأرض وأصاخ السمع. كان وقعُ الطرق أشدَّ وضوحاً هذه المرة. تسلل عبدالكريمُ من مخبئهِ، وقفلَ راجعاً نحوَ السور.

عندما وصلَ عبدالكريمُ إلى المرقب، وجد الشيخ قرناس وحسن بن مزروع والهزاني ورجالات الرس في انتظاره. بادرهُ الشيخُ قرناس بالسؤال:

"ماذا رأيت؟"

"لم أتبين ما رأيته بوضوح، لكن يظهرُ لي أن الأتراك يحفرون نفقاً كي ينفذوا عبره إلى السور".

تغيرت وجوه الرجال، وبان الانزعاج على وجه الشيخ قرناس.

"هل أنتَ متأكدٌ مما تقول؟"

"ليس هناك تفسير آخر للصوت الصادر من الأرض والبراميل التي ينقلها الأتراك إلى الحفرة".

Twitter: @abdulllah1994

"إذن هم يريدون تفجير أساسات السور بالبارود".

"هذا ما أظنه".

"كم يلزمهم من يوم للوصول إلى السور؟"

"لا أعلم، ولكني أظن أنهم لم يبدأوا في حفرِه إلا حديثاً. لم ألاحظ حركة مريبة لهم في ذلك الموقع من قبل".

التفت الشيخ قرناس نحو رجال الرس وهتف فيهم:

"من يأتيني بقطة؟"

أخذ الرجال ينظرون إلى بعضهم في تردد وانزعاج، وقد خيّل لهم أن قاضيهم قد أصيب بلوثة في عقله.

"ما بالكم؟ أكثرُ ما أكثرَ اللهُ هي القطط. ليقفز أحدكم ويأتني بقطة، وليأتني آخر بسعف نخلٍ يابس".

اندفعَ خمسةُ رجالٍ مع نهاية جملة الشيخ، وتفرقوا في طرقٍ مختلفة. لم تمضِ أكثر من ربع ساعة حتى عاد إثنان منهم بقطةٍ رماديةٍ وسعفِ نخلٍ ممزوق. تناول الشيخُ أطول السعفات وأخذ يربطها إلى ذيل القطة.

"عبدالكريم، هل تستطيع أن تتسلل عائداً إلى الموضع الذي كنت فيه، ومعك القطة؟"

"ما الذي تريد مني أن أفعله بالضبط؟"

"أريدك أن تشعلَ قبساً في السعف اليابس، حتى إذا ما توجست القطةُ حرارة النيران، اندفعت إلى الحفرة التي يحفرها الأتراك، لتفجرها

Twitter: @abdulllah1994

وتفجرهم معها".

"و ما الذي يضمن لك أن القطة سوف تندس وسط الحفرة؟ ربما سوف تندفع هاربة في العراء"!

"هل سبقَ لكَ أن طاردت قطة؟ القططُ عندما يهربنَ لا يندفعن إلى الأماكن المفتوحة، وإنما يندسسن في الفتحات الضيقة والجحور".

"لستُ مقتنعاً، ولكني سأفعلُ ما تقول".

"أنا أضمنُ لكَ حدوثَ ما قلتُ" أضاف الشيخُ بلغةٍ واثقة وهو يناوله القطة.

هذه المرة لم يتسلل عبدالكريم وحيداً خارج السور، بل رافقهُ مطلق الذي كان يحملُ القطة بيد، والسعفةَ بيدٍ أخرى، كي لا تثيرَ الضجيج. عندما وصلا إلى الطعس الرملي انبطحا خلفَه، وقام مطلق بتوجيه رأس القطة جهةَ الحفرة، بينما أشعلَ عبدالكريمُ القبسَ في ذيلِ القطة. ابتعدَ مطلقُ بجسمهِ عن السعفة، وحاولَ أن يتحامى اللهبَ الأزرق الذي أخذ ينتشرُ على طول السعفة، حتى إذا ما شعرَ بجسم القطةِ يتقوسُ من الألمِ أطلقها، فقامت المسكينة بالدورانِ حولَ نفسِها مرتين، ثم اندفعت هاربةً والنارُ تنهشُ ذيلها نحوَ الأتراك.

رفعَ عبدالكريم جسمه في تهورٍ وأخذَ يتبعُ القطة ببصرهِ وهو يدعو اللهَ أن يكون مخطئاً عندما أساء الظن في خطة الشيخ قرناس. تنبهَ أحدُ الأتراك لمواء القطة العالي، وعندما رفع بندقيته الثقيلة، لم يرع إلا بالقطة تقفزُ في يأسٍ وسط الحفرة المؤدية إلى النفق، ليدوي صوتُ

Twitter: @abdulllah1994

انفجارٍ هائلٍ وسط الليل، ولتمتدَ نيرانُ اللهبِ القاتلة حارقةً في طريقها كلَ من تمسُه ألسنتها الحمراء .

-٤-

"يا حبذا ريح الولد
ريح الخزامى بالبلد
ما ادري أنا مجنونة
أو ما ولد قبلي أحد "
أنشودة تنشدها الأمهات في الرسِ عندما يلاعبنَ أطفالهنّ

رغمَ أن الخبرَ الذي سار به الشيخ قرناس إلى زوجته رقية، هو نفس الخبر الذي سارت بهِ موضي إلى صديقتها منيرة، إلا أن شعورهما كان مختلفاً تماماً. أحسَ الشيخ قرناس بسعادةٍ غامرة، لا يدري لها تفسيراً، حينما أثمر نهاره الذي قضاه مع الدكسي في إقناعه بمعاودة الزواج مرة أخرى. عندما ذكر الشيخ قرناس اسم منيرة للدكسي، وأوضح الدكسي أنه لا يعرفها، أجاب الشيخ أنها هي نفس المرأة التي أرسلها عبدالكريم لتنبئ الشيخ عن حادثة النفق وعن خبر الأتراك. أخبره عن تيتمها في طفولتها، وعن ترملها في شبابها، وأخبرهُ أنها سترحب لا محالة برجلٍ مثله، عرف جميع أهل الرس حسن بلائه في الحرب، كما عرفوا عنه كرم أصله، وطيبة طبعِه.

لم يحظ الخبر بنفس الوقع الطيب عندما نقلته رقية إلى أختها

Twitter: @abdulllah1994

موضي. لقد كان الشيخ قرناس يعلمُ أن أخت زوجته موضي هي أقرب الناس من منيرة، وأنها خير من تستطيعُ مفاتحتها بالموضوع، ولكنه لو رأى امتقاعَ وجه موضي عندما ذكرت لها رقيةُ أن الشيخ قرناس ينوي أن يخطب صاحبتها منيرة للدكسي عبدالكريم، لربما عدلَ عن رأيه.

سارت موضي إلى بيت منيرة وهي تقدمُ رجلاً وتؤخرُ أخرى، وأخذتْ تقلبُ في عقلها الكيفية التي ستفاتح فيها منيرة بالموضوع. إن مجرد الفكرة باعثةٌ للسخرية. عندما اقتربت من الباب، شدت من أزرها، وطرقته طرقاتٍ متتابعة.

فتحت منيرة الباب مهللةً مرحبة، وأجلست موضي على الأرض بينما أخذت تغلي الماء أمامها. بلعت موضي ريقها، وأزمعت أمرها، ثم هتفت قائلة:

"اسمعي يا منيرة، أنا لستُ إلا رسولةً إليكِ، ولولا أن أختي أوصتني أن أنقل ما ذكرهُ الشيخ، لما تجرأتُ أن أطرحهُ أمامكِ".

"خير إن شاء الله !ما القصة؟"

"الشيخ يريدُ أن يخطبكِ لأحد رجال الحامية".

"أيّ الرجال؟"

"الدكسي".

"عبدالكريم؟"

هزّت موضي رأسها وزمّت شفتيها كي تؤكد على استنكارها

Twitter: @abdulllah1994

للموضوع.

"عبدالكريم الدكسي! عبدالكريم الدكسي! أصبرُ كل هذا الوقت لأتزوج من عبدالكريم الدكسي! من رجلٍ لا أصل له! من صلبي! هل أصيب الشيخ بالهبال؟ هل أصيب بالجنون؟ الدكسي؟ الدكسي أبو الحليب؟ لا بدَّ أنكِ مجنونة. لا بدَّ أن جميع من في بيتكم مجانين. هل قالوا لكم أنني إمرأة بائرة لا حظ لها؟ هل قال أحدٌ أنني متلهفة إلى الزواج كي أتزوج من رجلٍ كالدكسي؟"

نهضت موضي وأبعدت الماء المغلي من بين يدي منيرة المرتجفتين .

"أنا لا دخل لي بالموضوع، لقد أحسستُ بنفس الغضب عندما ذكرت أختي رقية اسم الدكسي".

جلست منيرة على الأرض وهي تتميزُ غيضاً، وحاولت أن تكبحَ من جماحِ غضبها. بعد فترة صمتٍ لم تتجاوز الخمس دقائق عاودت الصراخ في غضب:

"الدكسي! ألم يجد غير الدكسي! ماذا فعلتُ للشيخ كي يتمنى أن يتخلص مني بهذه الطريقة؟ أليس الدكسي هو الشخص الذي قتل زوجته وفرَّ من قبيلته؟ هل يريد الشيخ أن يزوجني إياه كي يقتلني ويرتاح مني؟"

"يكفي يا منيرة. لا تقهري عمركِ بلا طائل. لولا أني خشيت أن أقصرَ في حق الرسالة لما نقلت لكِ الموضوعَ من الأساس. سوف

Twitter: @abdulllah1994

أخبرُ الشيخ قرناس بأنكِ رفضتِ".

"لا.. لا يكفي. يجب أن نلقنهما درساً كي لا يعاودا الكرة، الدكسي وزوج أختكِ قرناس".

نهضت منيرة من جلستها، وعادت لتضعَ مدقاً ونجراً بين يدي موضي.

"ماذا أفعل بهذين؟"

"سوفَ أحضرُ لكِ حبحراً لتدقيه وسط النجر، ومن ثمَ سوف أصنعُ كليجة وأحشوها بالحبحر".

"تحشينها بالحبحر"!

"كي يعرفا أنَّ مثلي لا تتزوجُ رجلاً بلا أصل".

"سوف يغضبُ الشيخ قرناس".

"دعيه يغضب. أنتِ ليسَ لكِ دخل بالموضوع، قدمي لهُ الكليجة وقولي هذي من منيرة، صنعتها لكَ ولضيفك كي تعتذر ولتقولَ إنها لا تفكر بالزواج".

ضحكت موضي.

"لا أدري أينَ ستؤدي بنا أفكارك، ولكني سأعملها من أجلِك".

Twitter: @abdulllah1994

-٥-

"ماذا لو أنَّ كل شيء في هذا العالمِ هو عبارةٌ عن سوءِ فهم؟ ماذا لو أنَّ الضحكَ في الحقيقةِ هوَ بُكاء؟"
سورين كيركجارد

لا تستطيعُ أن تعيشَ العدمَ بسوداويتهِ وبثقلهِ إلا إذا جربتَ الغياب. العدمُ -كما عرفهُ سارتر- هو ضريبةٌ حتميةٌ للحرية، لقدرةِ الوعي البشري على اختراق حُجبِ المستقبل. عندما تذهبُ لملاقاةِ أحدهم، ثم تفاجأ بتأخرهِ، بعدم قدومه، بغيابهِ، حينَها سوفَ تجربُ العدمَ لأولِ مرة. تستطيعُ وأنتَ تجلسُ في مكانِك الذي تنتظر فيهِ أن تعدَّ اسماءَ جميع الأشخاص غير الموجودين، ولكنهم ليسوا غائبين حقيقةً، ليسوا غائبينَ بالمعنى الذي ألحقهُ بكَ عدمُ مجيئ الشخص الذي تنتظره. العدمُ هو ضريبةٌ حتميةٌ للحرية، ذلك أن الحريةَ تسمحُ لوعيكَ أن يخترق المستقبل، أن تجعله يعي مقدار الاحتمالات والخيارات الموجودة أمامه، كل ما عليه هو أن يختار. هذا الاختراق يجعلكَ تخلقُ حالةً حاضرة، يجعلُ حضورَ الشخصِ المُنتظَر شيئاً مفروضاً، شيئاً مُتوقعاً، ولذلك عندما لا يحضرُ الشخصُ الذي تنتظره، تصابُ بذلك الفراغ الأسود الهائل الذي يملأُ جسدَك ويطبقُ على روحِك.

أذكرُ كلَ ذلك كي أستوعبَ وإياكَ ذاكَ الشعورَ السوداويَ

Twitter: @abdulllah1994

الثقيل الذي لحقَ بعبدالكريم الدكسي عندما وضعَ الشيخ قرناس طبق الكليجة بين يديه، وأخبرهُ عن رفضِ منيرةَ الزواجَ منه. لم يكن الزواج أمراً ملحاً بالنسبة لعبدالكريم، ولولا أن الشيخ فاتحه بالموضوع لما خطرَ على بالهِ بالمرة. ولكن، وبعد أن فاتحهُ الشيخ قرناس بنيته، وبعدَ أن ذكر له اسم منيرة واستأذنه ليخطبَها له، بدأ عبدالكريم بالتفكير جدياً بالموضوع، بدأَ يطرق الأبواب المُحرمة والمؤدية للمستقبل. بدأ يتخيلُ حياةً تختلفُ عن حياته المعقودة بالمخاطر والترحال، بدأَ يتخيلُ زوجةً تنتظرهُ آخر النهار وتسأل عنه، وصلت به الجرأة أن ينفذَ إلى عاشر بابٍ خلفَ الحُجُبِ وأن يفكرَ بالأطفال. إنها حياةٌ تختلفُ تماماً عن حياته الحاضرة، ورغم أن فراقهُ لباقي رجال الحامية يعزّ عليه، إلا أنه لم يعد يطيقُ العيشَ بين النارِ والبارود. أكثر ما كان يغريه على طرقِ هذه الحياة الجديدة، هو أنها كفيلة بأن تنسيه ماضيه المُخيف والمُظلم الذي لا يريدُ لأحدٍ أن يطلّعَ عليه أو أن يسألَ عنه.

لهذا السبب، عندما أخبرَ الشيخُ قرناس عبدَالكريم برفض منيرة الاقتران به، أحسَّ بكلِ شيء ينهارُ أمامَه؛ أطفالهُ يموتون، زوجته التي تنتظرُ عودتَه إلى المنزل لا تنتظره، النار والبارود يحيطانِ به من جديد، والجثةُ الباردةُ الصفراء لا تزالُ تلاحقه من ماضيه. أحسَّ عبدالكريم بغصةٍ هائلةٍ تملأُ حلقَه، وبظلمة حالكةٍ تطبقُ على عينيه، ولكنه تجلدَ أمامَ الشيخ، واغتصبَ بسمةً موجوعةً ارتسمتْ على زاويةِ فمِه.

Twitter: @abdulllah1994

"لم أكنْ أتوقعُ موافقتَها على كل حال".

شعرَ الشيخُ قرناس بالندم على اقتراحه المتعجل وهو يرى هذه التقلصات الموجعة ترتسمُ على وجه عبدالكريم. أحسَّ بعض الشيء بالراحةِ لمفاتحته عبدالكريم بالموضوع وسطَ المرقب، بعيداً عن الناس.

"المرأة ذكرتْ أنّ لا حاجة لها بالزواج حالياً، ولو أنها تفكر بالزواج فلن تلقى رجلاً أفضلَ منك. سألتني أن أعتذرَ منك، وأن أقدم لك هذه الكليجة التي تبرعُ في صنعِها. ماذا تنتظر؟ سمِّ بالله، وكُل".

ذكرَ عبدالكريم اسمَ الله، وتناولَ إحدى الكليجات بيدِه اليمنى، وقضمَ نصفَها وسطَ فمِه. ما إن لامسَ دبسُها الأسود لسان عبدالكريم، حتى جحظتْ عيناه، وتوقفَ فكهُ عن الطحن. استغربَ الشيخ قرناس التغير المفاجئ الذي طرأ على وجه عبدالكريم:

"ماذا دهاك؟ ألم تستطب طعمها؟"

ابتلعَ عبدالكريم ما في فمه بصعوبة، وهو يتمنى لو أنّ قربة ماءٍ موجودةٌ حولَه كي يطفئ بها النار التي اشتعلت في جوفِه. ماذا يحدثُ بالضبط؟ هل للأمرِ علاقةٌ بخطبته؟ هل هي نكتةٌ سيئة للضحكِ منه؟ هل هي رسالةٌ خفية إلى الصلبي الذي تجرأ أن يخطبَ من هي أعلى منه نسباً؟

فجأةً، دوى صوتُ انفجارينِ هائلين، وتهاوت جدرانُ المرقب الترابية المخلوطة بالتبن فوقَ عبدالكريم والشيخ قرناس .

Twitter: @abdulllah1994

نجحت نيرانُ القبسِ التركية في هدمِ ستةِ أدوارٍ من المرقب وتسويتِها بالأرض، كما نجحت في صنعِ فتحةٍ عريضة في السور. أخذَ الدخانُ والغبارُ يتصاعدان من كومة الحطامِ على طول الفتحة، صانعانِ ستاراً كثيفاً يعيقُ على من في الداخلِ رؤيةَ الخطر الذي يقتربُ من خارج السور.

يروي أبناءُ مبارك الكفيف ما رواه لهم أبوهم عن ذلك اليوم، والذي صادفَ أن يكونَ متواجداً وراء المرقب، حين كان صبياً، وقبل أن يلحقَ الرمدُ بعينيهِ ليعميَهما. يقولُ مبارك:

"اهتزتْ الأرضُ من حولي، وتداعتْ ستُ أدوارٍ من المرقبِ وكأنَّ يداً هائلة سقطت عليها من السماء لتسويها بالأرض. أخذَ الدخانُ يتصاعد من كل مكان، وعندما بدأ بالانقشاع تبينتُ فتحةً عريضةً على طول السور، ولمحتُ أشباحَ جندٍ أتراك وهم يتقدمون ناحيةَ الفتحة. هممتُ أن أرفعَ ثوبي وأفرَّ من مكاني، لولا أن رجلاً انتفضَ فجأةً أمامي من تحت الركام، لينتصبَ على رجليه وكأنهُ شيطان. كانَ شعرهُ مغبراً وثائراً، أما عيناه فلقد كانتا حمراوين وكأنهما من حطبِ جهنم. أخذَ الرجلُ يتلمسُ البندقيةَ المعلقة على ظهره حتى عثرَ عليها، وعندما تبينتُ سحنةَ الرجلِ عرفته مباشرة؛ كان هو الدكسي صاحب الحليب. أمسكَ الدكسي ببندقيته الطويلة وتأكدَ من حشوها، وعندَها، انطلقَ وهو يصرخُ بصوتٍ عالٍ جهة الفتحةِ وكأنَّ

Twitter: @abdulllah1994

مساً من الشيطان أصابه. أخذ أهل الرسِّ يلقون بسعف وجذوع النخيل على طول الفتحة، إلا أني كنتُ قادراً على أن أتابع الدكسي ببصري وهو ينطلقُ خارجَ السورِ ملقياً بنفسهِ نحوَ الأتراك. هوى أول إثنينِ من الأتراك برصاصتين من بندقية الدكسي، وعندما اقتربَ من التركي الثالث، ضربهُ بعقبِ بندقيتهِ فأرداهُ صريعاً. سرعانَ ما بدأتْ النيران تشتعلُ وتتصاعد من السعف وجذوع النخل، حاجبةً بذلك رؤية ما يجري خلف السور، ولكني أقسمُ بالله العظيم، أني رأيت الدكسي بعينيّ الإثنتين يقتلُ عشرةً على الأقل من الأتراك الكفار، قبل أن يهويَ صريعاً تحت نيرانهم ليجروه إلى معسكرهم".

-٦-

"لكننا لسنا كباقي الناس!"
الشيخ قرناس بن عبدالرحمن

استمرَ الحصارُ لمدةِ ثلاثةِ أشهرٍ وخمسة عشر يوماً، وعندما تأكدَ إبراهيم باشا من استعصاء هذه المدينة الصغيرة وسورِها على رجاله، أرادَ أن يتوصلَ مع شيخها إلى اتفاقٍ يحفظُ لهُ ماءَ وجهه، ولا يطمعُ بهِ باقي مدن وقرى نجد. أرسل الباشا إلى الشيخ قرناس رسولاً يعرض عليه الصلح، على أن يسمحَ أهل الرسّ للباشا أن يدخل بصحبةِ

Twitter: @abdulllah1994

عشرين رجلاً من دون سلاح، ليطلعَ على تحصينات هذه المدينة التي استعصت عليه من الداخل. تمَّ الاتفاق على يوم الجمعة، وأمرَ الشيخ قرناس نساء الرسِّ بأن يلبسنَ ثياب الرجال كي يعتقد الباشا أنهم كثرةٌ فلا يطمعُ بهم. صلى الشيخ قرناس صلاة الجمعة بالناس، وألقى خطبةً عن الوفاء معرضاً بها بالباشا الذي قال له بعد الخطبة: "أنتَ ذئبٌ وخطيبٌ في نفسِ الوقت".

لم ينسَ إبراهيم باشا هذه المدينة الصغيرة التي بقيت كالشوكةِ الدامية في حلقه، فأرسلَ وهو في الدرعية رجالاً إلى الرسّ كي يقتلوا الشيخ قرناس أثناء الصلاة. يُقال إن الشيخ قرناس استشعرَ حركةً غريبةً حينما دخلوا المسجد، وكانَ يقرأ على الناس سورة القيامة فأخذَ يعيدُ الآية "يقول الإنسانُ يومئذٍ أين المفر؟" حتى فهمهُ المؤذن محمد بن عبدالله الخميس فأجاب "إلى أبان الحَمَر"، فسجدَ الشيخُ قرناس وأطالَ السجود، ثم هربَ إلى حيث أشار إليه مؤذنُ مسجدِه.

الأخبارُ والملاحمُ طويلةٌ ولا تنتهي، والحقيقةُ تختلطُ مع الأسطورة حتى يصبح التفريقُ بينهما أقرب إلى المحال. تقعُ وسطَ الرسِّ مقبرةٌ تدعى بمقبرة الشهداء، حيثُ دُفن الأبطال الذين صمدوا في وجه الباشا وجنودِه. يحفظُ أهلُ كلِ شهيدٍ قصصاً لا تنتهي عن بطولات وأخبار قتيلهم المدفون، ولكنَّ هناكَ قبراً خارجَ أسوار الرسّ لا يعرفُ أحدٌ موقعهُ ولا يتذكرُ أحدٌ أفعالَ صاحبِه. يُقالُ إن صاحبَ

Twitter: @abdulllah1994

القبر كان لا يخطئُ الرمايةَ أبداً، ويقالُ إنهُ أردى عشرةً من الأتراكِ قبلَ وفاته. رغم أن بطولاتٍ مثل هذه تبقى خالدةً ومرويةً بالعادةِ على مرّ الزمن، إلا أنَّ اسمَ صاحبِها لم يبق إلا في أنشودةٍ قصيرةٍ يحفظها أطفالُ الرسِّ عن ذاك الرجل المجهول الذي كان مولعاً بشربِ الحليب .

ليسَ هذا كلُ ما تبقى من ذلك الرجل إذا أردنا الدقة، إذ يُقال إن نساءَ الرسّ تسامعنَ بأخبار البطولات التي حكاها مبارك الكفيف عن الدكسي قبل وفاته، وأنهنَّ الوحيدات -و بالأخص منيرة وموضي- اللاتي حينَ سمعنَ بالقصة أدركنَ السببَ وراء بطولات الدكسي المذهلة والملحمية. منذُ ذلك اليوم، ونساءُ الرسِّ يكثرنَ من الحبحرِ في طعامِ رجالهنّ.

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

مَن قَتَلَ الواقدي؟

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

"كانت ألواحي تضيع، فأوتى بها من شهرتها بالمدينة،
يقال: هذه ألواحُ ابنِ واقد".
محمد بن عمر بن واقد السهمي

المخطوطة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم، من إسحاق بن إبراهيم المصعبي، صاحب شرطة بغداد، إلى مولانا القاضي أحمد بن أبي دؤاد، أطال اللهُ بقائه وعِزّه. بلغني كتابكَ الذي تستفهمُ فيه عن حادثةِ مقتل محمد بن عمر السُهمي، صاحب المغازي الشهير، والمعروف بين الناس بالواقدي، ولقد حرصتُ على أن أتعهدَ المسألةَ بنفسي، لما يتمتعُ بهِ مولانا القاضي من الحظوةِ والمكانةِ العاليةِ لدينا. كانت مقدمةُ الخبرِ أن وجدَ أحدُ العَسسِ جثةَ المؤرخِ الواقدي بقربِ أحدِ الدكاكين في محلةِ سوقِ يحيى في ساعةٍ متأخرةٍ منَ الليل.

حدثني رجلُ العسسِ أنَّ الجثةَ كانت ملقاةً على بطنِها في آخرِ الزقاق، وأنها كانت تسبحُ في بحيرةٍ من الدم الأسود. عندما قلبَ الرجلُ الجثةَ على ظهرها، وجدَ أنَّ الدمَ كانَ ينبعثُ من فمِ القتيل، كما وجدَ قطعاً متخثرةً سوداء تملأُ موضعَ اللسان المبتورِ من جذره. فحصتُ الجثةَ بنفسي، فلم أجد بها موضعاً لطعنةِ سيفٍ أو وَجأةِ رمح، مما يؤكدُ أنَّ المؤرخَ قضى نحبَه بعد أن نزفَ من لسانِه وفمِه .

Twitter: @abdulllah1994

قامَ رجالي بالتحريّ بحثاً عن شهودٍ لتلك الواقعةِ المُنكرة، ولقد أتوني آخرَ النهارِ برجلين لا أدري إن كنتُ قادراً على الاعتداد بشهادتيهما أم لا. الأولُ كهلٌ عجوز، اختلطَ عليهِ بصرهُ بسببِ ماءٍ أزرق ألمَّ بعينيه، كانَ قد تأخرَ في إقفالِ دكانهِ بعد أن انصرفَ الناس، وعندما همَّ بالشخوصِ إلى داره، رأى رجلاً شبهَ عارٍ قد اتزّرَ بسراويلَ متسخة، يقفزُ من سقفِ الدار المجاورة لدُكانه، ويعدو في اتجاهِ الزقاق الذي وقعت فيه حادثة القتل. عندما سألتُ الرجلَ العجوز إن كان متأكداً من حقيقةِ ما رآه أم أنّ الأمر قد خُيّلَ إليه، أقسمَ يمينَ طلاقٍ أنهُ متأكدٌ من حقيقةِ الرجل العاري كتأكدهِ من فحولتِه. قابلتُ الابنَ البكر للعجوز، وعندما سألتهُ عن والدِهِ أخبرني أنّ عقلَه قد اختلطَ عليهِ مذْ ماتت أمُ ولدِه.

الشاهدُ الثاني رجلٌ نصراني كانَ قد انصرفَ من بابِ الشمّاسيةِ بعدَ أن شربَ في حاناتِها وسَكِر. قابلتُ الرجلَ النصراني بعد أن صحا من سكرته، وسألتهُ أن يُعيدَ عليّ نفسَ القصة التي رواها على رجالي، فأخبرني أنهُ أبصرَ فارساً مُلثماً بثيابٍ سودٍ على فرسٍ سوداء، وأنّ الفارسَ كانَ يحملُ رمحاً طويلاً وينطلقُ مثلَ النارِ نحوَ الزقاقِ الذي وقعت فيه الحادثة. يزعمُ الرجلُ النصراني أنّ الفارس الأسود رجعَ من نفس الطريق بعد ربع ساعة، وأنَّ سِنان رمحهِ كان يقطرُ دماً قانياً

Twitter: @abdulllah1994

حينذاك، وأنه حينَ تجاوزهُ، حانت التفاتةٌ من الفارس الأسود، سقط معها لثامهُ فإذا بهِ فتاة حسناء من ربّات الخدور!

أكتبُ هذه التفاصيل وأنا أتحرجُ أن أعرضها على مولانا القاضي، ولولا ما خبرتهُ عنكم وعن حرصكم الشديد على تسقّط كل شاردةٍ وواردةٍ والإلمام بها، لما أثقلتُ كاهلَكم بروايتها. أمرتُ رجالي أن يفتشوا شوارع بغدادَ بحثاً عن رجلٍ وامرأة تتوافق صفتاهما مع ما ذكرهُ الكهل العجوز والرجل النصراني، كما أمرتُ رجالي أن يفتشوا دارَ الواقدي ويبحثوا في صحفهِ ومخطوطاته. عثرَ قائد حرسي على هذه الصحيفة بخطّ الواقدي، والتي أرسِلها إليكم مرفقةً مع هذه الرسالة، كي تطلّعوا عليها، وتحكموا بأنفسكم على ما فيها .أطالَ الله عزَّ مولانا القاضي، وجعلهُ لنا وجاءً وذخراً.

المخطوطة الثانية

لا زلتُ أذكرُ النشوةَ التي غمرتني وأنا أقرأُ مغازي رسول الله لعروة. كنتُ صبياً في المدينة، وكنتُ أتعهدُ مجلسَ أبي معشر السندي وأنا كلي إعجابٌ ودهشة، كيفَ يستطيعُ هذا الرجلُ أن يأسرَ النفوسَ ويحبِسَ الأنفاس، وكيفَ أنَّ الحقيقةَ صارت ملكاً له، حتى قصدهُ الناس، ووجهوا إليه أعناقَ مطاياهم من أقاصي الأرض؟ أذكرُ جيداً المرةَ الأولى التي تصدرتُ فيها مجلسَه. كان أبو معشر مصاباً بالرَمدِ

Twitter: @abdulllah1994

حينَها، ولقد أخذَ الناسُ يتهامسونُ احتجاجاً، إذ كيفَ يتأتى لغلامٍ طريرٍ أن يحدّثَ الناسَ ويروي لهم مغازي نبيهم؟ اخترتُ غزوةَ حنين، وكنتُ أعلمُ يقيناً مدى تأثيرها على النفوس، ولقد رأيتهم يحبسونَ الأنفاسَ ذعراً وأنا أروي لهم كيفَ انهزمَ المسلمون عن رسول الله عندَ الزحف، ولقد ظلت أنفاسهم محبوسةً ورقابهم مشرئبة حتى صحتُ بأعلى صوتي: "أينَ أصحاب السَّمُرة؟" فإذا بهم يهتفونَ بصوتٍ واحد: "يا لبيكَ، يا لبيك".

لا أدري، هل كان لي أن أبلغَ هذه المنزلةَ الرفيعةَ والصيتَ الذائع لو أني مكثتُ في المدينة، ولم أزايلها إلى بغداد؟ كانَ الفرقُ جلياً بين المكانين، وكان من الواضحِ أن ما يرضي المدنيين ليس قادراً بالضرورةِ على إرواء غليل البغداديين .في المدينة، كنتُ أجاورُ في مجلسي أكثرَ من مئةِ عالمِ حديثٍ ومغاز، أما في بغداد، فلم يكن أحدٌ قادراً على أن يميّزَ إن كان ما أقولهُ كذباً أم حقيقة. كانَ كل ما أحتاجهُ هو أن أنضّد رواياتي باسماءِ رواةٍ يثقون بهم ويطمئنون إليهم، ثمَّ أبدأ بروايةِ ما يشبعُ شهيتهم المفتوحة لسماعِ القصصِ والبطولات. كانَ جمهورُ المدينةِ يطربُ لدقةِ الخبر وللتأصيلِ والتوثيق، أما في بغداد، فلقد كانوا يطربونَ للبطولاتِ وللخوارقِ والملاحم، ولذا كانَ من المحتّمِ عليّ أن لا أصلَ بغداد إلا ومعي ضِرار.

Twitter: @abdulllah1994

أذكرُ جيداً تفاصيل ذلك اليوم الذي جئتُ فيهِ بِضِرار. كنتُ أجلسُ على كرسيٍ خشبي في دكانِ أبي يحيى الورّاق، وكان محمد بن هارون ويوسف بن عمر قد افترشا الأرضَ وأخذا يصغيانِ إلى حديثي باهتمام. أخذتُ أحدّث القوم عن السرية التي ابتعثها خالدُ بن الوليد إلى بيتِ لهيا، وكنتُ أحسُّ بحماسِ الرجلين البالغ، وباستعدادهما القلبي لتشرّبِ كلِ كلمةٍ أتفوهُ بها. لا أدري ما الذي دفع باسمِ ضِرارٍ إلى فمي من بين باقي الاسماء! لم يكن اسمه معروفاً إلا بين الرواة الضالعين، وكان لا يردُ إلا لِماماً في أخبارِ اليمامة، وفتوح العراق والشام. لكني كنتُ أعلمُ أنه الاسم الأمثل، كان حدسي يؤكدُ لي أنه الاسم الأكثر وقعاً، الأعذب جرساً، الاسم الأصلح لدورِ البطولة.

اتسعت عينا الرجلين اهتماماً وأنا ألقي عليهما باسمِ ضِرار، وعندما اختلقتُ كيف أنَّ ضِراراً حملَ على الروم بصدرِ عارٍ وسراويل متسخة، أخذا يشرئبان بعنقيهما حتى كادا أن يصلا إليّ من مجلسهما. أحسستُ بنشوةٍ هائلة ولذةٍ عظيمة، وكنتُ أرى انعكاس هذه النشوة وتلك اللذة في عيونهما الممتلئة بالدهشة. أخذتْ دقاتُ قلبي تتسارعُ باطرّاد، وتذكرتُ أستاذي أبا معشر وعصاه الطويلة التي كانت ستنهال ضرباً فوقَ ظهري لو أنه أدركني في ذلك المجلس. اتسعتْ دائرةُ المستمعين من حولي، ووجدت نفسي مُجبراً على اختلاقِ اسم خولة كي أجعلها تنتصرُ لأخيها وتحررهُ بعد أن وقعَ أسيراً في يدي والي

Twitter: @abdulllah1994

حمص. كنتُ أدركُ أنني تماديت، أنني أضعُ قدميّ فوق أرضٍ خطرةٍ وموحلة، ولكنني لم أستطع التوقف. اطمأننت إلى نظرات الحاجة البادية في عيونهم، والتي أخذت تزداد وضوحاً وأنا أروي عليهم كيف عقدت خولةُ عمامتها حول لأمتها، وكيف امتطت فرسها السوداء وانطلقت كالنار تثخنُ وتقتلُ في جيوش الروم. كنتُ أنا المالكَ الوحيد للحقيقةِ آنذاك، بل كنتُ أنا صانعها، وخالقها الأوحد.

بعدَ أسبوع، وبينما كنتُ أجلسُ في دكان أبي عمرو البصري، أخذ راوٍ شاب يحدثني عن فتوح الشام، وذكرَ لي حديثَ بيتِ لهيا، وكيفَ خلّصت خولةُ أخاها ضِراراً من الأسر. أحسستُ بشعورٍ غريب يتنازعني ما بين النشوةِ والرهبة، وانعقدَ لساني دهشةً وأنا أرى الاسماء التي اختلقتها منذ أسبوعٍ تتحولُ إلى حقيقةٍ قادرةٍ على أن تقفَ جنباً إلى جنبٍ في كتب التأريخ، مع اسماء خالد بن الوليد، وشرحبيل بن حسنة، وخالد بن سعيد بن العاص.

كان أبي ينهرني كلما رأى اشتغالي بالمغازي، وترددي على المحدثين ورواة الأخبار. كان يخبرني أنّ هذه العلوم لا تُقيم أوداً ولا تشبعُ بطناً. أينَ أنتَ يا أبا محمدٍ من ولدِكَ الآن؟ أينَ أنتَ كي ترى كيف أصبح ولدُكَ صاحبَ حظوةٍ عند الخليفة، وقبلةً يقصدها الناسُ ليرتووا ويعلّوا، ومالكاً واحداً للحقيقة، يصنعها ويشكلُها كيفَ يشاء؟

Twitter: @abdulllah1994

كلبُ مدينةِ إفسس

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

كلُ الأشياء تنزعُ إلى الخلود؛ البذرةُ حينَ تضحي بفلقتِها كي ينموَ جنينُها، الزوجُ حينما يخصبُ زوجته كي تحملَ أجنته، المادةُ حينَ تتحول من مادةٍ إلى طاقةٍ إلى مادة. كلُ الأشياء تنزعُ إلى الخلود، تحاولُ أن تتسامى لنيلِ هذه الصفة الإلهية الفريدة، ولكنّ سيف الموت، يأبى في النهايةِ إلا أن يُذكّرَها، أنها أوضعُ من أن تطمحَ إلى قَبسٍ من نورِ الدائم.

هل قرأتَ عن الرجلِ الذي رمى نفسَه تحتَ حوافرِ حصان الإسكندر كي تدهسَه؟ هل قرأتَ عن ضابط الجمارك الذي ضايقَ الفيلسوف الشهير فولتير حتى صَفَعهُ على خدِه؟ هل تساءلتْ عن السبب الذي يدفع هؤلاء الأشخاص كي يتصرفوا بمثلِ هذه التصرفات الغريبة؟ إنه الخلود، طموحهم البشري الذي ينزعُ بغير وعيٍ إلى الخلود، حتى وإن كانَ خلوداً في قصة، المهم، أن يبقى بعد الموت .

لا شيء يخيف الإنسان أكثر من أن يتحول إلى عدم، إلى لا شيء، إلى صفر. فاعلُ الخيرِ يفعلُ الخيرَ كي يُذكرَ به، فاعلُ الشرِ يقترفُ الشرَّ كي يُذكرَ به، الذكرى شكل من أشكال الخلود، ولا شيء يحفظ الذكرى أكثر من القصة.

Twitter: @abdulllah1994

صحيحٌ أن الشخصيات القصصية مسلوبة الإرادة، صحيحٌ أنها تبقى أسيرةَ الأحداث التي عاشتها سابقاً، ولكنها ستبقى تعيشها، مرةً، ومرتين، وإلى الأبد، ما دامت القصة التي تتناولها تلقى رواجاً بين الناس. لا يهم توفرُ الإرادةِ من عدمه، لا تهم الحريةُ بعد الموت، ما يهم هو الخلود، أن تبقى الشخصية ما أمكنها البقاء، حتى وإن كانت اسماً عابراً في قصةٍ محكية.

عندما تبدأ الجدة بحكاية القصة على أحفادِها، تُبعثُ الشخصية إلى الحياة، عندما تختم الجدةُ قصتَها، تعود الشخصية إلى الموت. عندما يفتح القارئ الصفحة التي تحتوي اسم الشخصية يبعثها، عندما يغلق الصفحة، تموت. بعضُ الشخصيات القصصية تُبعثُ أكثر من غيرها، بعضها تحيا زمناً أطول، وإذا كانت الشخصية ذات حظٍ وافر، كُتب لها أن تَخلُدَ في قصةٍ دينية .

القصصُ الموجودة في النصوص الدينية هي أكثر القصص قدرةً على بعثِ وتخليد أشخاصها، إذ إنها تُقرأ على نطاقٍ أوسع وأكثر تكرراً، وبهذا تحيا شخصياتها بصورة شبه يومية، ما دامَ هناك عابدٌ يتبتلُ في مسجده، أو كنيسته، أو معبده.

هكذا هو شأنُ أهل الكهف، نيام إفسس السبعة؛ مكسيموس، ومالخوس، ومرتينيانوس، وديوناسيوس، ويوحنّا، وسرابيون، وقسطنطين. لقد ناموا في كهفهم ثلاثمئة سنة كما في النصّ الإسلامي،

Twitter: @abdulllah1994

ولقد ناموا في كهفهم مئتي سنة كما في النصّ المسيحي، ولقد ضمنَ لهم هذا النوم الغريب والمُعجز، أن يظلوا خالدين خلودَ قصتهم. إنهم ينامون الآن تحت التراب، في العدم، في المنطقة التي تتجاوز الذاكرة، ولكنهم يُبعثون يومياً كلما رتّلَ مصلٍ سورة الكهف، أو قرأ أحدُ الرهبان سنكسارهُ المقدس.

إنهم منزوعو الإرادة، يحيون قصتهم بتفاصيلها التي يحفظونها، يحفظونها عن ظهر قلب، ولا يسوؤهم أن يستكملوا القصة بلسانٍ مسيحي عند الحدث الذي توقف عندَه الراوي المسلم، أو أن يستكملوا القصةَ بلسان مسلم عند الحدث الذي توقف عندَه الراوي المسيحي. ها هنا شيخٌ مسلم يبعثهم إلى الحياةِ ليتركهم وسط الكهف، ها هنا عجوزٌ مسيحية تخرجُ أحدَهم من الكهف لتتركَه وسطَ السوق، ها هنا صبي مسلم يُرجعُ صاحبَ السوقِ إلى رفقتهِ كي يحكيَ لهم ما اكتشفه. لقد اعتادوا على هذه الحياة المتقطعة القصيرة المتكررة. لقد رضوا بها، وقرروا أن يحَيوها على ألسنةِ رواةِ القصة.

و لكن، هناك شخصية لم يفطن لها أحد، هناك مأساة تدور على هامش هذه القصة بشكل يومي. إنه الكلب، الكلب الذي تبع هؤلاء الفتية رغماً عنهم، الكلب الذي ذكرهُ النصّ الإسلامي، وأسقطه النصّ المسيحي. هل قرأت عن الضياع، عن الجنون، عن فقدان الهوية، ستجد كل هذا وزيادة في عقل الكلب. لم يكن قادراً على فهم ما

Twitter: @abdulllah1994

يجري حولَه، ولا يزال يتخبط يومياً في وضعه المأساوي الغريب .أحياناً يجد نفسَه يتبع الفتية السبعة فوقَ حافة الجبل، أحياناً يحسّ بفقدٍ هائل وكأنه غير موجودٍ في القصة. أحياناً يحسّ بالضياع المفاجئ وبانعدام الهوية، أحياناً يحسّ بالإدراك المتأخر، وكأنه انضمَّ لأحداثِ القصة لاحقاً. لا تبدو على وجه الفتية علامات الحيرة والضياع والجنون التي يقاسيها، لا يبدو عليهم أنهم يعانون مثله من حالات الوجود والفقد المتتابعة وغير المنطقية. إنهُ يتمنى أن يهربَ من سجنِ القصة، أن يرميَ نفسه من حافة الجبل ويموت، أن ينام وسط الكهف ولا يستيقظ أبداً. هو يدرك أن الخلود نعمة لا ينالها كثيرٌ من بني جنسه، هو يدرك تماماً أهمية المزية التي يحظى بها، ولكن الخلود يجب أن يكون واحداً، يجب أن يكون للزمن معنىً فيه، يجب أن يمنحهُ وجوداً واحداً مرتبطاً بوجودِ الأشياء الأخرى، يجب أن لا يحوي الوجود والفقد في نفس الوقت.

لا يزال الكلبُ يتذكر ذاك الصباح البعيد الذي تبعَ فيه الفتية السبعة رغم محاولاتهم المتكررة لطرده أو إخافته. كيف له أن ينسى ذاك الصباح وهو يعيشه كل يوم؟ ولكن ذاك الصباح البعيد كان مختلفاً، كان منطقياً، كان يحس بوجودهِ وبانتمائه ومعناه. كان شيئاً مختلفاً عن هذا الخلود الغريب المتقطع والمتناقض والمتنافر .

لو كان القديس غريغور يعلم بالعذابات التي ستصيب الكلبَ جراءَ سهوهِ عن ذكر اسمه، لما أسقطه من قصته!

Twitter: @abdulllah1994

عندما أفاقتْ الجميلةُ النائمة

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

سأحكي لكَ اليومَ حكايةً شريرة. حكايةً قد تخالُ أنكَ سمعتَ بها، أو بما يشابهها، ولكني أؤكدُ لكَ أنكَ لم تفعل. هي حكايةٌ تحامى الآباءُ أن يقصوها على أبنائهم، وإن فعلوا، حكوها هجينةً شائهة. حكاية أُحرقت الكتب التي تتناولُ نصَها الأصليّ، أو طُمرت تحتَ أقبيةِ الكنائسِ العتيقة، وأضرحةِ المقابرِ المهجورة.

هل سمعتَ بالجميلةِ النائمة؟ تلكَ الأميرة الصغيرة ذات الخمسة عشر ربيعاً، والتي لحقتها لعنةٌ تحتّمُ عليها أن تنامَ مئة عامٍ متواصلة دونَ أن تستيقظ؟ هذه الأميرة هي نفسُ الأميرةِ التي سأحكي لكَ عنها، إلا أن اللعنة التي لحقتها تختلفة، تختلفة تماماً!

ففي إحدى مقاطعاتِ هولندا، عاش أحدُ الأمراءِ برفقةِ زوجتهِ الأميرة. كان الزوجان سعيدينِ ومحبوبين بين سكانِ المقاطعة كافة. الشيء الوحيد الذي كان يعكّرُ صفوَهما، هو تأخر إنجاب الأميرة لطفلٍ يكونَ خَلَفاً لهما وقرةَ عين. لهذا السببِ نذرَ الأميرُ على نفسهِ أنهُ إن رزقَ بصبيٍ أو صبية، فلسوفَ يقيمُ مأدبةً كبيرة، يدعو إليها جميعَ سكانِ المقاطعة.

بعدَ بضعةِ أشهرٍ، انتفخَ بطنُ الأميرة، وأخذَ الأميرُ يراقبُ تكورَ بطنِ زوجتهِ كل يوم، والدنيا لا تسعه من فرحه. عندما وضعت الأميرةُ طفلتَها الجميلة، خرجَ المنادي من القصرِ يبشرُ الناسَ بالسعدِ

Twitter: @abdulllah1994

والأفراح، ويدعوهم لحضورِ المأدبة الكبيرةِ التي سيقيمها الأميرُ احتفاءً بمولدِ جميلته الصغيرة.

أخذت بطاقاتُ الدعوةِ تنهالُ على الضيوفِ، وكأنها أسرابٌ من الحمامِ الهائجِ الذي أخذ بالتدافعِ أثناءَ خروجهِ من بابِ القصر. شدّدَ الأميرُ على كاتبِ القصرِ أن لا ينسى إرسالَ ثلاث عشرةَ دعوةً إلى الثلاث عشرة ساحرة اللاتي يسكنَّ وسط المقاطعة. كانت الساحراتُ آنذاك يحظينَ بهيبةٍ وتبجيلٍ بين الناس، وكان الأميرُ يرجو منهنَّ أن يطرحنَ البركةَ على صغيرتهِ عند حضورهنّ.

جاءَ يومُ الاحتفال، ولبسَ الأميرُ أبهى ثيابِه. كانت زوجتهُ الأميرةُ تستلقي على أريكةٍ وثيرةٍ بجانبِه، بينما وضعا مرقداً لصغيرتِهما الجميلة بينهما. أخذَ الناسُ يتقاطرونَ على القصر، وكلٌ يحملُ معه هديةً ثمينةً ليهبَها المولودةَ الصغيرةَ بمناسبةِ ميلادِها الميمون. جاءت الساحرات، وأخذت كل واحدةٌ منهنّ تهبُ الصغيرةَ خصلةً تزيدها جمالاً وأبهة. قالت الأولى: "أنا أهبكِ الحسن"، وقالت الثانية: "أنا أهبكِ الفضيلة"، وقالت الثالثة: "أنا أهبكِ الدلال"، وقالت الرابعة: "أنا أهبكِ الذكاء"، وقالت: "الخامسة: "أنا أهبكِ خفة الروح"، وقالت السادسة: "أنا أهبكِ عذوبة الصوت"، وهكذا أخذنَ يغدقنَ على الأميرة من الفضائل ما يجعلها أحلى بناتِ عصرِها، إلا أنَّ أحداً لم يفطن إلى أنَّ كاتب الأمير نسيَ إرسالَ دعوةٍ للساحرةِ الثالثة عشرة.

Twitter: @abdulllah1994

فجأةً دُفعَ البابُ، ودخلت الساحرةُ التي نسيَ كاتبُ الأميرِ دعوتها والشررُ يتطايرُ من عينيها. صرختْ الساحرةُ في غضبٍ :

"أما أنا.. فإني أقولُ أنكِ في يومِ ميلادكِ الخامسِ عشر، ستنامينَ فتحلمين، وستستيقظين لتنامين، وسيختلطُ عليكِ الأمرُ حتى تصبحي عاجزةً عن التحققِ إن كانَ ما ترينهُ حُلُماً أم حقيقة ".

هكذا قالت الساحرة الثالثة عشرة، قبلَ أن تخرجَ تاركةً ورائها القاعةَ، وقد غمرَها صمتٌ مُطبق.

* * *

مرت الأيام، وأخذت الأميرة الصغيرة تكبرُ وتتفتحُ محاسنُها كزهرةِ دفلى تحت الشمس. كان الاسمُ الذي اختارهُ لها والداها هو الصابات، إذ كانَ يعني (وعدَ الله) في أصلهِ اللاتيني، ولقد كانت بالنسبةِ إليهما أجملَ وعدٍ تم تحققه. كانَ كلُ من يراها يقفُ مشدوهاً أمامَ جمالِها، ويستغربُ كيفَ اجتمعت كلُ هذه المحاسنِ في شخصِ الأميرةِ الشابة. لم يعدْ أحدٌ يتذكرُ قصةَ الساحراتِ واللعنة التي أطلقتها آخرهنّ. هكذا هي الحياة، مباهجُ تنسينا ما طَعِمنا من أحزان، وأحزانٌ تنسينا ما خبرنا من مباهج. ولقد كانَ الكونت جوستاف -ابن حاكمِ المقاطعة المجاورة- أحد أغلى هذه المباهجِ لدى الأميرة الصابات.

في أحدِ الأيام، خرجت الأميرةُ الصابات بفستانِها الأزرقِ الحريريّ، وشعرها المعقود، لتتنزهَ مع وصيفتِها بينَ حدائقِ القصر.

Twitter: @abdulllah1994

عندما أغذّت السير وشارفت إحدى البحيرات الصغيرة فاجأها الكونت جوستاف بالظهور. كانَ يحملُ بينَ يديهِ اللطيفتين صندوقاً مذهّباً صغيراً. انحنى الكونت جوستاف بين قدمي الصابات، ثمَّ رفعَ رأسه ليتطلعَ في عينيها مباشرةً وهو يقول: "هل تقبلين بيدي أيتها الأميرة؟"

رجعت الأميرةُ إلى القصرِ وهي تكادُ أن تسقطَ على الأرضِ من الإثارةِ والفرحة. لطالما تمنت في سرِها أن تصبحَ زوجةً لابنِ الكونتِ الوسيم .استلقت الأميرةُ الصابات فوقَ سريرِها الوثير، وأخذت تسترجعُ المزيجَ الغريب من المشاعرِ المتضاربة التي شعرت بها جميعاً تملأُ قلبَها فجأة. كانتْ تحاولُ أن تسترجعَ كلَ شعورٍ وأن تفصلَه وتستنكههُ على حدة، وكأنها تريدُ الإحاطة بسرٍّ هذه النشوة المُخدِرة والاحتفاظَ بها أطولَ مدةٍ ممكنة. كانَ قلبها الصغير يرقصُ جذلاً. أغمضتُ الأميرةُ الجميلةُ عينيها، ورسمت على وجهها ابتسامةً وضاءة، ونامت.

* * *

عندما أفاقت الصابات، كانَ أول ما خطرَ في بالِها هو شعورُها اللذيذ بالنشوة. لقد أصبحت خطيبةً للكونت جوستاف! سوفَ تحملُ لقبَ عائلتهِ منذُ اليوم. ابتسمت الأميرةُ لصورتِها المرتسمةِ على صفحة المرآة المقابلةِ لسريرِها، والتفتت سريعاً عندما سمعت صوتَ وصيفتِها

Twitter: @abdulllah1994

وهي تطرقُ بابَ مخدعِها. دخلت الوصيفةُ حاملةً بينَ يديها إناءاً خزفياً ينضحُ بالماءِ البارد. قفزت الأميرة الصابات نحوَ وصيفتها وعانقتها وهي تقول :

"أنا أسعدُ امرأةٍ في الدنيا".

ابتسمتْ الوصيفةُ في تحرجٍ وسألت:

"لماذا يا أميرتي الصغيرة؟"

"بسبب جوستاف يا غبية! لأن جوستاف طلبَ يدي".

"هل هذا صحيح؟ متى حدثَ هذا؟"

ارتخت عضلاتُ الأميرة الصابات وتراجعت قليلاً وهي تنظرُ بدهشةٍ في عيونِ وصيفتها الزرقاوين.

"ما الذي أصابكِ؟ ألم تكوني معي بالأمس حينما تقدمَ الكونت جوستاف بطلبِ يدي؟"

"الكونت جوستاف رجعَ إلى مقاطعةِ أبيه منذُ أكثرِ من أسبوع يا أميرتي"!

أظلمت الدنيا في عيني الأميرة الصغيرة، وأحست بدوارٍ ينغزلُ حولَ جسدِها، ثمَّ سقطت مغشيّاً عليها.

* * *

عندما أفاقت الصابات، رأت والدَها يجلسُ على حافةِ سريرِها وهو ينظرُ بقلقٍ نحوَها. كانت يدهُ القويةُ تمسكُ بحنانٍ يدَها وتغلفها.

Twitter: @abdulllah1994

حاولت الصابات أن تتكلفَ رسمَ ابتسامةٍ على وجهها المُتعب، علّها بذلكَ تجلبُ له بعضاً من طمأنينة. ضغطَ والدُها على كفِّها الصغيرة وهمسَ قائلاً:

"هل أنتِ بخير؟"

هزّت الأميرةُ رأسها.

"ما الذي حدث؟"

"لا شيء. يبدو أني حَلمتُ حلماً سخيفاً، وأفقتُ في الصباحِ وأنا لا أزالُ تحتَ انطباعِ الحُلم، ولكن الوصيفة قامت بإخباري مشكورةً أنهُ لم يكن إلا حلماً ابتسمت الأميرة بمرارةٍ، وحاولت أن تحافظ على نبرة صوتها في آخر الجملة.

"ما الذي حلمتِ به يا صغيرتي؟"

"أنَّ الكونت جوستاف تقدّم بطلبِ يدي".

"وَ هذا بالضبط ما فعله الكونت. لقد مرّني بالأمسِ بعدَ أن تقدمَ لكِ في الحديقة، وأطلعني على ما جرى، وأخبرته بمباركتي لمثلِ هذه الخطوة. بعدَ ذلكَ قامَ بمغادرتِنا، ليقومَ بإخطارِ والديه، وليجلبهما معه عندَ عودتِه".

اتسعت حدقتا الأميرة في دهشةٍ مشوبةٍ بفرحٍ حَذِر.

"وَ لكنَّ الوصيفةَ أخبرتني أن الكونت جوستاف غادرنا منذُ أكثر من أسبوع"!

Twitter: @abdulllah1994

"لا بدَّ أنكِ كنتِ تحلمين يا حلوتي. الوصيفةُ كانت ملازمةً لأختِها منذُ أن رجعتْ معكِ من الحديقة، فلقد وصلَها خبرٌ عن إصابةِ أختِها الكبرى بحمى النُفاسِ بعدَ وضعِها مولوداً بِكراً".

"هل هذا يعني أن الكونت جوستاف سوف يرجع بصحبةِ والديه ليتمَّ الأمر؟"

هزَّ والدُها رأسهُ مؤمّناً على كلامِها، ثمَّ فتحَ ذراعيهِ العريضتين ليستقبلَها في حضنه.

"وَ الآن.. نامي يا عزيزتي واسترجعي عافيتكِ. فأنا متأكدٌ أن الكونت جوستاف لن يكونَ راضياً لو رأى هذا الشحوب على وجنتيكِ الورديتين".

ابتسمت الأميرةُ في سعادةٍ غامرةٍ وهزّت رأسها، وعندما غادرَ والدُها الغرفةَ، أغمضت عينيها، ونامت.

* * *

عندما أفاقت الصابات، رأت خيوطَ الشمسِ الذهبية تتسللُ عبرَ النافذة. تمّطت فوقَ مرقدِها، وأسندت ظهرَها على مقدمةِ السرير الخشبية. كانَ عقلُها الصغير مشوّشاً بالأفكارِ والأحداثِ المتداخلة. تناهى إلى أذنيها طَرقٌ رفيقٌ على بابِ مخدعِها .عندما فُتحَ الباب، تراءتْ الوصيفةُ وهي تحملُ في يدِها الإناء الخزفي. ابتسمت الصاباتُ

Twitter: @abdulllah1994

في ودٍ وسألتها:

"كيفَ هوَ حالُ أختكِ الكبيرة؟"

قطّبتْ الوصيفةُ حاجبيها في استغرابٍ ثمَّ أجابت بسرعة:

"بخيرٍ على ما أظن. لم أسمعْ عنها منذُ مدة".

امتقعَ وجهُ الصاباتُ فجأةً وأخذت الكلماتُ تتعثرُ بين شفتيها:

"ألم ترسلْ إليكِ بالأمسِ تطلبُ منكِ أن تكوني بجانبِها بعدَ وضعِها؟"

"وضعها! أختي الكبرى لم تتزوج، وليست حاملاً كي تضَع"!

أحستْ الأميرةُ المسكينة بشعورٍ يشبهُ الغثيان يجتاحُها، ولكنها تحاملتْ على نفسِها وجرت نحوَ غرفةِ أبيها في الجناحِ المقابل. دفعتْ البابَ بسرعةٍ دونَ أن تتكلفَ الاستئذانَ وهتفتْ سائلة:

"أبي.. هل سمعتَ أيَّ أخبارٍ تؤذنُ بقدومِ الكونت جوستاف؟"

"الكونت جوستاف! وما الذي يأتي بهِ إلى هنا؟ ألم يذهب إلى العاصمةِ منذُ شهرين كي ينضمَ إلى البلاطِ الملكي كما تناهى إلى أسماعِنا؟"

بدلَ أن يسمعَ الأميرُ إجابةً من صغيرتِه، سمعَ صوتَ ارتطامِها على الأرض.

***

Twitter: @abdulllah1994

عندما أفاقت الصابات، رأتْ رجلاً غريباً يجلسُ على كرسيٍ بقربِ سريرِها، وقد وضعَ إحدى فخذيه بارتياحٍ فوقَ الأخرى. كانت عينا الرجل الغريب ناعستين، وكأن جفنيه المتعبين يوشِكان على الإغماضِ أيَّ لحظة. كانَ ذقنهُ المربعُ حادَ الزوايا، أما شنبهُ الأسودُ فقد كانَ يغطي شفتهُ العليا بكاملِها. ولكن ورغمَ هذه الهيئة الغريبة نسبياً، كان أكثرَ ما يجذبُ الانتباهَ إليهِ هو شعره! كان شعرهُ الأماميّ مقصوصاً بشكلٍ دائريٍ كالصبيانِ فوقَ جبهتهِ، بينما تهدّل شعرهُ على الجانبين، ليغطيَ آذانهُ ويصلَ إلى أكتافِه. فوقَ هذا كله، كان يرتدي وشاحا أسودَ تعلوهُ ياقةٌ بيضاء عريضة تخفي عنقَه عن الأنظار. لو كانت الصابات في موقفٍ غير هذا، لانفجرت ضحكاً من هيئة الرجل الغريب.

اعتدلتْ الصابات في جلستِها، وسحبتْ غطائها الأبيضَ فوقَ صدرِها. تنحنحَ الرجلُ الغريبُ فوقَ مقعدِه وتمتمَ بصوتٍ أجشّ:

"أرجو من آنستي الصغيرة أن تغفرَ لي إن كنتُ أخفتها".

"من أنت؟ ماذا تفعلُ هنا؟"

"اسمي رينيه ديكارت، ولقد دعاني أبوكِ إلى القلعةِ كي أساعدكِ في حلِ مشكلتكِ".

تقوّسَ أحدُ حاجبي الأميرة الصابات، بينما أخذت تحاولُ أن تستدعيَ هذا الاسم الذي بدا مألوفاً إلى ذاكرتِها. بعدَ فترةِ صمتٍ لم

Twitter: @abdulllah1994

تمتدّ إلا لثوانٍ معدودة، هتفت الأميرة:

"أنتَ السيد الفرنسي الذي نامَ بجانبِ الفرنِ في إحدى القرى الألمانية في الشتاء؟"

هزَّ ديكارت رأسهُ في يأسٍ وتمتم:

"يبدو أنَّ الناسَ لا يعرفونَ عني إلا هذه القصة المخجلة! أنا هوَ يا آنستي".

"شرفٌ لي أن ألتقيَ بكَ يا سيد ديكارت".

"الشرفُ لي يا آنستي، وإن كنتُ أستعجلُ الرجوعَ إلى العاصمة، كي أهربَ من بردِ مقاطعتِكم الذي آذى عظامي الهزيلة. كيفَ لي أن أساعدكِ؟"

أطرقت الصاباتُ برأسِها، وأخذت تفكرُ لبرهةٍ من الوقت. عندما رفعتْ رأسها، كانت عيناها تتنازعانِ نظراتِ الرجاءِ والشك .

"المشكلة أنني لا أدري يا سيد ديكارت إن كنتَ أنتَ الآن حلماً أم حقيقة".

اعتدلَ ديكارت فوقَ كرسيهِ وسأل:

"وَ لماذا تقولين ذلك؟"

"لا أدري! حصلَ شيء غريب لا أعرف ما هو، جعلني أنسى إن كانَ آخرَ شيء أتذكره حلماً أم حقيقة. صرتُ أنامُ وأستيقظ يا سيد ديكارت، وفي كلِ مرةٍ أجدُ أني أعيشُ واقعاً يتناقضُ معَ ما عهدتهُ قبلَ

Twitter: @abdulllah1994

الاستيقاظ، ولا أدري هل أنا أحلمُ بكَ الآن، وسأستيقظُ فلا أجدك، أم أني يقظةٌ الآن، وسأحلمُ لاحقاً بما يتنافى مع وجودِك؟"

أخذَ ديكارت يمررُ بإصبعيهِ على شاربهِ الكثّ، وقد التمعتْ عيناهُ الناعستان ببريقٍ ساحر.

"وَ ما الذي ترجحينهُ أنتِ؟ هل أنا حلمٌ أم حقيقة بالنسبةِ إليكِ؟"

"لا أدري! أنا أراكَ الآن، ولربما سأزدادُ يقيناً من وجودِك إذا استطعتُ لمسَك".

"وَ ما الذي يدعوكِ للوثوقِ ببصركِ أو لمسكِ؟ ألسنا نحلمُ فنرى الأشخاصَ الذين نعرفهم على صورهم التي عهدناها قبل الحلم؟ ألسنا نلمسهم ونتعاركُ معهم ولربما نقتلهم أثناءَ حلمنا؟ لقد أثبتت الحواس أنها قادرةٌ على خداعِنا، ومن الحكمةِ أن لا تعوّلي كثيراً على ما خدعكِ سابقاً".

"إذا كنتُ لا أستطيعُ الثقةَ بحواسي، فلا سبيلَ لي إذن لأصل إلى يقينٍ أو إلى مجردِ إدراكٍ لما هو حولي"!

"ليسَ تماماً. هناكَ شيء واحدٌ لا جدالَ على حقيقتهِ ولا مفرَّ من إدراكِه".

"ما هو؟"

"Cogito ergo sum"

Twitter: @abdulllah1994

"ماذا؟"

"أنا أفكر، إذن أنا موجود".

"لم أفهم"!

"كلُ شيء في هذه الدنيا يمكنُ أن يتطرقَ إليه الشك، وأيُّ شيء مشكوكٌ فيه لا يمكن أن يعوّلَ عليهِ كبناءٍ معرفي أوليّ. إلا أنَّ هناكَ حقيقةً لا يُمكن أن يُشكَ بها أبداً وهي الوجود. عندما تفكرين، تمارسين وجودكِ كماهيةٍ مفكرة .أنتِ عندما تشكين بوجودكِ تمارسين التفكير، ولذا يكونُ شككِ في هذا الوجودِ تأكيدٌ لحقيقته".

"هل يعني هذا أنكَ موجود؟"

"أنا أعلمُ يقيناً أنني موجودٌ الآن، لأنني أفكر، ولكني لستُ واثقاً تمامَ الثقةِ من وجودك. كذلك أنتِ، تستطيعين أن تثقي من وجودكِ الآن لأنكِ تفكرين، ولكن لا سبيل لكِ للتيقنِ من حقيقةِ تفكيري، ولذا لن تعلمي إن كنتُ موجوداً حقيقةً -بالنسبةِ إليكِ- أم لا".

"لم تزدني إلا تشويشاً. كيف سيفيدني كلُ هذا في التفريقِ بين الحلمِ والحقيقة؟"

"أنا أضعُ لكِ حجرَ الأساسِ للانطلاق. فلقد ذكرتِ حواسكِ في البداية، ولذا اضطررتُ أن أبيّنَ لكِ أنه لا يمكنكِ الاعتمادُ عليها لأنها تخدعنا. ولكن العقل كما ترين لا يخدعنا، وهو الوسيلة الوحيدة التي يمكننا من خلالِها أن نتحققَ من وجودِنا".

Twitter: @abdulllah1994

"وَ كيف سيفيدني إيماني بالعقل؟"

"عندما نؤمن بالعقل، سوفَ نؤمنُ بالله".

"كيف ذلك؟"

"كيفَ استطاعَ الانسانُ أن يحملَ فكرةَ اللهِ في عقله؟ هذه الفكرة لا بدَّ أنها جاءت من مصدرٍ معين، إذ إنهُ ليسَ هناك شيء يأتي من لا شيء. وكما أنَّ حقيقة الشيء تدلُ على حقيقةِ مُسببه، فإنَّ حقيقةَ فكرةِ الله تدلُ على حقيقةِ الله".

"أظنُ أنني أضعتُ الطريق، ولا أستطيعُ أن أفهمَ إلى أينَ تريدُ أن تأخذني بالضبط"!

"بما أنَّ اللهَ موجود، وبما أنهُ أسمى ما في هذا الوجود، لا يمكنُ إذن أن نتصورَ أن الله يخدعنا. لا يمكن أن نتصورَ أن الله يخلقنا، ثم يهبنا حواساً قادرةً على أن تخدعنا بطريقةٍ منهجية. نحنُ ندركُ أنَّ هذه الحواسُ قد تخدعنا أحياناً، وهذا الإدراك نابعٌ من أفكارنا المُسبقة التي نستغربُ عدمَ توافقها مع ما نشاهدُ ونلامسُ ونشمّ ونتذوق، ولذا فإن كلّ ما نؤمن بهِ بوضوحٍ وصفاء هو حقيقةٌ عقلية".

قطّبت الأميرة بحاجبيها لفترةٍ من الوقت، ثم نظرت إلى الفيلسوفِ المتربعِ بزهوٍ، وقالتْ في جرأةٍ صبيانية:

"لا أدري إن كنتُ فهمتُ ما قلته لي بالضبطِ يا سيد ديكارت، ولكنكَ كما أخالُ تغالطُ نفسَك".

Twitter: @abdulllah1994

كادَ ديكارت أن يسقُطَ من كرسيه. عدّل من جلستهِ على الكرسي وسأل:

"كيف ذلك؟"

"لقد استخدمت الأفكار الواضحة لتثبت حقيقةَ وجودِ الله، ثمَّ استخدمت فكرةَ الله لتثبت صحةَ هذه الأفكارِ الواضحة. ألا ترى أنكَ تدورُ في حلقةٍ مفرغة؟"

لو أنَّ شخصاً ثالثاً كانَ حاضراً آنذاك، لرأى شواربَ السيد ديكارت وهي تتراقصُ في كل اتجاه صعوداً وهبوطاً.

"أليسَ هناكَ من حل يا سيد ديكارت؟"

استعادَ السيد ديكارت رباطةِ جأشه، ثمَّ تنحنحَ وقال:

"بلى هناكَ حل. ثقي أنكِ دائماً ستجدين حلاً طالما آمنتِ بقدرةِ عقلكِ".

"و ما هو الحل يا سيد ديكارت؟"

"في اليقظة لا تخرجُ الأحداثُ التي نعايشها ونحسُها عن حدودِ المألوف، بينما في الحلم يمكنُ أن تحدثَ هذه الأشياء بين فترةٍ وأخرى".

"و ما الذي تعنيه بالخروج عن حدود المألوف؟"

"مثلاً لو اختفيتُ الآن من على الكرسي وتلاشى جسمي وأنتِ تنظرين،فستعرفين أني كنتُ مجردَ حلم".

"و لكن كل ما عهدته حتى الآن لم يخرج عن حدود المألوف.

Twitter: @abdulllah1994

الخارج عن حدود المألوفِ هو هذا التناقض بين كل تجربةٍ وأخرى"!

"اصبري إذن، وتطلعي حولكِ، حتى تشاهدي شيئاً يخرجُ عن المألوف".

سكتت الأميرة إليزابيث وكأنها أحست بالخيبة، بينما أخذ يراقبها ديكارت وهوَ يتمنى من أعماقِ قلبه أن تكفَّ عن طرح هذه الأسئلة اللعينة.

"سيد ديكارت"!

"ماذا؟"

"هل يمكن أن أطلبَ منكَ طلباً؟"

"ما هو؟" أجاب ديكارت بضيق.

"لو كنتَ حلماً الآن اختفِ أرجوك، وسأحسُ بالامتنانِ لكَ مدى الحياة، حتى وإنْ كنتَ حلماً".

نهضَ السيد ديكارت بغضبٍ وقد تحوّل وجهه إلى اللون القرمزي الغامق.

"أختفي! أهذا ما وصلتِ إليه بعد كل هذا النقاش؟ أختفي! أنا رقدتُ بجانبِ الفرنِ لمدةِ ستةِ أيامٍ وسط الصقيع والبرد كي أتمكنَ من الوصولِ إلى الحقيقة، وأنتِ تطالبينني أن أختفي؟"

أخذت الأميرةُ تراقبُ السيد ديكارت وهو يشقُ بصعوبةٍ طريقَه بين الأثاث، حتى وصل إلى البابِ ليخرجَ منه، ويصفقهُ بعنفٍ وراءَه.

Twitter: @abdulllah1994

لو كان لديها أدنى شكٍ بحقيقة السيد ديكارت، فلسوف يتلاشى الآن بعدَ هذه الغضبة العارمة التي تركتْ مفاصلَ بابِ غرفتِها تصرُّ من بعدِ خروجهِ كقطةٍ جائعة!

* * *

وَ الآن يا قارئي العزيز، لا أملكُ إلا أن أتنحى جانباً لأشاركَ الضحكَ على غرور السيد ديكارت. لقد كان يتربعُ فوقَ كرسيهِ بكلِ ثقةٍ ويقولُ مخاطباً الأميرة: "أنا أفكر، إذن أنا موجود ".

فيما أنتَ وأنا، نعرفُ كلانا أن السيد ديكارت لا يعدو أن يكونَ شخصيةً خياليةً أتحكمُ بها في قصتي كيفَ شئت، وأطرحُ الأسئلة على لسانها، وأجعلها تفكر .لقد قال السيد ديكارت بكلِ ثقةٍ "إنَّ الشيء الوحيد الذي هو متأكدٌ منه هو وجوده" ولكنه مع الأسف، وكما نعلمُ كلانا، لم يكنْ موجوداً. لقد غابَ عن بالِ السيدِ ديكارت أنَّ وجوده مرهون بالقصة، والتي ليسَ لها وجودٌ ماديٌّ أصلاً، ولكني أعذرُ السيد ديكارت عندما غابت عن باله هذه الفكرة، إذ إني كمؤلفٍ أردتُ لها أن تغيبَ عن بالِه.

و الآن يا قارئي العزيز.. أريدكَ أن تنظرَ إلى عينيَّ في شجاعةٍ وتجيب على سؤالي: "هل أنتَ موجود؟"

Twitter: @abdulllah1994

أرنولفيني

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

-١-

كانت يدُ جان تهتزُ وهو يرسمُ ما أمامه. لم يسبقْ لأحدٍ أن طلبَ منه أن يرسمَ شيئاً مثلَ هذا من قبل. لم يكن يمتلكُ وقتاً كافياً كي يفكرَ أو ليسمحَ للفزعِ أن يتسللَ إلى قلبه. كان عليه أن يمتثلَ للأمرِ ويرسم. أن يرسمَ وحسب. أن يرسمَ بسرعةٍ وبذكاء. أن يجعلَ ريشتهُ ترقصُ فوقَ الخطِّ الدقيق الفاصل بين البوحِ والكتمان. أن يجعلَها تنادي بصوتٍ خافتٍ علَّ أحداً يصغي إليها ويسمعها ولو بعدَ حين .

عندما فرغ جان من رسم اللوحة، كتبَ فوقَ المرآة مباشرة: "فان آيك كانَ هنا."

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

-٢-

اليوم، لن أحكيَ لكم حكايةً كما جرتِ العادة. اليومَ سأحضرُ لكم لوحةً وأدعُها تحكي بدلاً عني. لا أعرفُ إن كنتم مثلي أم لا، ولكني بمجردِ أن أدخلَ معرضاً للوحاتِ أقومُ بالمسارعةِ بإطباق يديّ الاثنتين فوقَ آذاني. لا أدري كيف يُفترضُ بالإنسانِ أن يستمعَ إلى مئة قصةٍ تُحكى لهُ وأن يفهمها جميعاً في نفسِ الوقت! لو كنتُ مسؤولاً عن المعارضِ الفنية، لوضعتُ كلَّ لوحةٍ على حدة في غرفةٍ مستقلة. اللوحاتُ نصوصٌ معلقة، لا أجدُ فرقاً بينها وبين النصوصِ المكتوبة عدا أننا نستحضرُ جمالها أولاً ثمَّ نبدأُ بقراءةِ تفاصيلها، بعكسِ النصوص المكتوبة التي لا نستحضرُ جمالها حتى ننتهي من قراءةِ ما فيها من تفاصيل.

التفاصيل، التفاصيل، ألم يقولوا بأنَّ اللهَ موجودٌ في التفاصيل؟ لقد أحضرتُ لكم لوحةً تنتمي إلى حقبةٍ كان فنانوها ينغمسون في التفاصيل إلى حدِّ الهوس، ولذلك أنا في حيرةٍ من أمري: من أينَ وكيفَ أبدأُ قراءةَ القصة؟ ما رأيكم أن نبدأَ بالكلب؟ أشعرُ أنَّ قراءةَ القصة ستكونُ أسهل إذا بدأنا بالكلب.

فوقَ الأرضيّة الخشبية يقفُ كلبٌ بنيٌ صغير. أريدكم أن تتأملوا النظرة التي ارتسمت على وجه الكلب وأن تخبروني عن الوضعية التي

Twitter: @abdulllah1994

اتخذتها قوائمه القصيرة. لا يبدو الكلبُ سعيداً على الإطلاق. بل أنا أجرؤ على القولِ إنَّ الكلبَ لو كان أكبرَ جُرماً لهجمَ على الشخص الذي أمامه ومزقهُ إرباً. ولكن لماذا ومِمَن هو غاضب؟ اقلبوا الصفحةَ الأولى..

و انتقلوا معي إلى المرآةِ المقعرة الموجودة في آخرِ الغرفة. هل ترون خيالات الأشخاص المنعكسة على السطح الزجاجي للمرآة؟ نستطيعُ أن نرى ظهر السيد أرنولفيني بقبعته السوداء، وأن نرى ظهر خطيبته الشابة بفستانها الأخضر. ولكني أرى شخصين آخرين، أحدهما يلبسُ ملابس زرقاء، والآخرُ يرتدي قبعةً ووشاحاً أحمرين. الرجلُ المتلفعُ بالزرقة هو الرسام الفلامنكي جان فان آيك، ولكني أجهلُ من هو الرجلُ الذي يرتدي القبعة والوشاح الأحمرين! يبدو أنه أحد رجال التاجر أرنولفيني، كما يبدو أنهُ هو سيء الحظ الذي اختاره الكلبُ كي يزمجرَ في وجهه. سأرجعُ مرةً أخرى وأتساءل: لماذا الكلبُ غاضبٌ على هذا الرجل؟

اقلبوا الصفحةَ الثانية..

و اسمحوا لي الآن أن أخرجَ من سياقِ اللوحة وأن أعطيكم نبذةً تاريخيةً قصيرة عن الشخص النحيل ذي الوجه الشاحب، والذي يُدعى أرنولفيني. حسب السجلات البلدية التي راجعها المؤرخون، يعتقدُ معظمهم أنَّ هذا الأرنولفيني يُدعى "جيوفاني دي نيكولا

Twitter: @abdulllah1994

أرنولفيني، أحد التجار الموسرين ذوي الأصول الإيطالية، والذي سافرَ واستقرَ في بلجيكا، بلدِ الرسام فان آيك. كما يحدثنا المؤرخون أن أرنولفيني كان متزوجاً من سيدةٍ إيطالية نبيلة ترتبطُ بوشائجِ قرابةٍ من أسرةِ ميديسي المرعبة. هذه الزوجة ماتت قبل سنةٍ من تأريخ هذه اللوحة. إذا كان ما يزعمهُ المؤرخون صحيحاً، فمن هي السيدة ذات الفستان الأخضر المرسومة باللوحة؟ لم يستطع أيّ من المؤرخين أن يصل إلى اسم هذه السيدة التي تشبه المادونا بملامحها الهادئة، ولكنهم قاموا بطرح فرضياتٍ عديدة عن شخصيتها وعن مناسبة اللوحة التي خلدتها. هناك مؤرخون يزعمون أنها خطيبة أرنولفيني، وأنَّ اللوحة جاءت تخليداً لتلك المناسبة السعيدة. هناك مؤرخون يزعمون أنها زوجته، وأنَّ بطنها المنتفخ دليلُ حملها من أرنولفيني. هناك مؤرخون يزعمون أنَّ أرنولفيني طلب من فان آيك رسم اللوحة كي تكون شاهداً على الشراكة التجارية التي ستربط ثروته بثروتها، وخصوصاً أنهُ كان يمرُ بأزمةٍ مالية آنذاك. ولكن ما شأننا نحنُ والمؤرخين؟ ما شأننا وديدان الكتب هؤلاء الذي لا يحسنون قراءة القصصِ رغمَ وضوحها أمام أعينهم؟

لنرجع الآن إلى قصتنا. لنرجع إلى الصفحة الثالثة من اللوحة.

ما رأيكم بالسرير الخشبي ببطانته وأغطيته الحمراء؟ هل بلغَ الانفتاحُ بأبناء الطبقة البرجوازية أن كانوا يسمحون للرسامين

Twitter: @abdulllah1994

بالدخول لمخادعهم الخاصة ورسمهم فيها؟ هناك من يقول إن هذه الغرفة للضيوف، وأنهُ كان من الشائعِ وضعُ أسرةٍ في غرف الإستقبال كي تتمكن المرأة التي أنجبتْ حديثاً من استقبال ضيوفها على السرير. على أيّ حال، ليس هذا ما يهمني في السرير، أريدكم أن تتأملوا القطعة المخملية الحمراء التي تتدلى وحيدةً من سقفِ السرير بطريقةٍ قبيحة. هل أرادَ لها مصممُ السريرِ أن تتدلى بهذه الطريقة البشعة، أم أنها كانت متصلةً بعمودٍ خشبي موجود في زوايا السرير الأربعة؟ راجعوا انعكاس القطعة المخملية الحمراء على المرآة، وستجزمونَ مثلي أنَّ هناك عموداً خشبياً كان متصلاً بها .

اقلبوا الصفحةَ الثالثة.

أريدكم الآن أن تتأملوا وضعيات أيدي أرنولفيني وخطيبته ذات الفستان الأخضر. ماذا ترون؟ يدُ أرنولفيني اليمنى مرفوعة في وضعية شبه مسرحية وكأنه يؤدي قسماً، أو كأنه ينوي أن يطبق بهِا على يدِ خطيبته اليمنى. لا يوجدُ لديَّ مشكلة مع يدِ أرنولفيني اليمنى. مشكلتي الرئيسية تتركزُ في يدِ خطيبة أرنولفيني اليسرى. ما هذه الوضعية الغريبة التي تتخذها؟ هل هي حاملٌ فعلاً، أم أنَّ هذه وضعية شائعة تتخذها سيدات القرون الوسطى حسبَ ما يزعم المؤرخون؟ هناك من ينفي احتمال الحمل بشدة ويعزو انتفاخ البطن إلى الفرو الداخلي المبطن للفستان الأخضر.

Twitter: @abdulllah1994

الآن اقلبوا الصفحة الرابعة.

أريدكم أن تخبروني: إلى أين ينظرُ أرنولفيني وخطيبته في اللوحة؟ يظهرُ أنَّ أرنولفيني ينظرُ مباشرةً في اتجاه الرسام -كما يُفترضُ لأيِّ شخصٍ مرسوم أن ينظر. ولكن ماذا عن خطيبته؟ ماذا عن المادونا؟ إلى أين تنظرُ هذه السيدة بالضبط؟ هل هي تنظرُ إلى اليد اليمنى لأرنولفيني؟ هل هي تنظرُ إلى نقطةٍ تقعُ خلفَ اليد؟ من المستحيل أن نجيب، لأنَّ مثل هذه النظرات الساهمة لا تتطلعُ -في العادةِ- إلى شيء .

هنا، هبطتْ عليّ الحقيقةُ مثلَ الصاعقة.

هنا، وصلتُ إلى نهايةِ اللوحة بطريقةٍ فظة، دونَ أن أدركَ أنني كنتُ قريباً من النهاية.

إنها ميتة! خطيبةُ أرنولفيني كانت مذبوحة! السيدة المجهولة ذات الفستان الأخضر والمنتصبة على قدميها في اللوحة لم تكن على قيدِ الحياة! كم كنتُ أصمَّ! كم كنتُ أعمى! كيف لي أن لا أنتبهَ إلى هذه الحقيقة الواضحة؟

لقد انعقدت جميع الخيوط. لقد اكتملت جميع التفاصيل. كلُ شيء له معنى الآن. كل زاويةٍ تصرخُ بصوتٍ عالٍ بالحقيقة. أستطيع أن أرى أحداثَ الجريمةِ البشعة بكاملِ تفاصيلها أمام عينيّ .

لقد قامَ هذا الشيطانُ القبيحُ بقتلِ خطيبتهِ عندما رفضت شراكته

Twitter: @abdulllah1994

أو كتابة ثروتها باسمه، ثمَّ أمرَ رَجلهُ ذا الوشاح الأحمر أن يثبت خطيبته المقتولة بالعمود الخشبي المنتزع من السرير، أن يضعهُ تحتَ فستانها الطويل، وأن يثبّتَ يدها اليسرى إلى العمود بالمسمار. لهذا السبب يظهرُ خنصرُها الأيسرُ مكسوراً في اللوحة. كان كل ما يلزم أرنولفيني هو أن يمسكَ بيدِ خطيبته اليمنى بهذه الطريقة المستهترة كي يحافظ على توازنها. أستطيعُ أن أراها تسقطُ كالعامودِ إلى الخلف لو أنَّ أرنولفيني أفلتَ يدَها. لهذا السبب كان الكلبُ الصغير -كلبها- ينظرُ بعداءٍ باتجاه الرجل ذي الوشاح الأحمر الذي ثبّتَ سيدته إلى العمود الخشبي. كلُ شيء لهُ معنى الآن.

أستطيعُ أن أرى الرسام فان آيك وهو يتعثرُ أثناء دخوله الغرفة. أستطيعُ أن أرى يده المرتجفة وهو يحاولُ أن ينهيَ بسرعةٍ هذه اللوحة التي كان يريدها منهُ أرنولفيني بشدةٍ كي تكون شاهدَ زواجٍ يكفلُ انتقالَ ثرواتِ خطيبته الطائلة إليه. أستطيعُ أن أراه وهو يحاولُ أن يستنجدَ بعبقريته الفنية في سباقٍ مع الزمن، كي يودع في التفاصيل الصغيرة والمتفرقة ما سيبوحُ بسرِّ السيدة المقتولة وخطيبها الوقح الذي يقفُ بتحدٍ واستهتار، ممسكاً بيدِ خطيبته المقتولة أمام الجميع وكأنه يسخرُ منهم. أستطيعُ أن أفهمَ الآن لماذا اختصَّ فان آيك لوحتهُ هذه بتوقيعه الشهير الذي كتبهُ باللغة اللاتينية ليكونَ شاهداً على حضوره: "فان آيك كان هنا."

Twitter: @abdulllah1994

-٣-

"مادونا".

"....."

"مادونا، هل تسمعينني؟"

"اسمي ليسَ مادونا".

"أدري. أنا أجهلُ اسمكِ، ولكنكِ تشبهين العذراء. تشبهينها في

Twitter: @abdulllah1994

حزنِها".

"من أنت؟"

"أنا أحدُ من تطلعوا في اللوحة".

"....."

"أريدُ أن أسألكِ سؤالاً واحداً. سؤالاً واحداً فقط، وسأتركك في سلام".

"اسأل".

"النظرةُ التي تعتلي وجهكِ في اللوحة، إنها تطاردني في أحلامي، توقظني من منامي، سوف تصيبني قريباً بالجنون .أخبريني، كيف كنتِ تشعرين قبلَ أن يقتلكِ خطيبكِ مباشرة؟ هل كنتِ تشعرين بالحزن؟ هل كنتِ تشعرين بالخيبة؟ بالطمأنينة؟ بالاستسلام؟ بالرضا؟ أرجوكِ أخبريني".

"و لماذا تريدُ أن تعرف؟"

"حتى أدركَ الحقيقة".

"الحقيقة! الحقيقة هي ما تقرأهُ أنت. ما تقرأه. تلكَ هي الحقيقة".

Twitter: @abdulllah1994

اسمي وضاح

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

"اسمي عبدالرحمن، وتلقبني ابنةُ عمي بالقِرد؛ ذلك أني كنتُ أقفزُ بين أشجار الغاف: -واحد، إثنان، ثلاثة- كالقردِ تماماً! كانت ابنةُ عمي تشيرُ إلى إحدى الأغصانِ الناتئة وتقول: يا عبدالرحمن، إن استطعتَ أن تتعلقَ بهذا الغصنِ، ثم تتدلى منه إلى الشجرةِ الثانية، فالثالثة، فالرابعة؛ فلكَ ما تريد .أسألها متخابثاً: حتى وإن كانت قُبلة؟ فتقطّبُ بحاجبيها، تَزْوَرُّ من أمامي، وعندها، أقفزُ إلى الأعلى لأتعلقَ بالغصن، إلا أني بدلاً من أن أتبعَ الطريقَ الذي أشارت إليه، أغافلُها، وأقفزُ إلى غصنٍ أكثر علواً لأختفي فوقَها، ثمَّ حينَ تبدأُ بتقليبِ نظرِها بحثاً عني، أهبطُ عليها من أعلى كالباشقِ، وأفاجئها بانتزاعِ قبلةٍ من جبينِها، فتقوم بالصراخِ محتجةً: قِرد، قِرد، أنتَ يا عبدَالرحمن قِرد!

تلكَ كانت أيامُ صنعاء، أيامُ الصِبا، سقاها اللهُ من أيام، قبلَ أن يطمحَ بصري إلى الحجازِ وأهلِه، ومن ثمَّ الشآم. عندما بلغتُ العشرينَ من العمر، وفدَ عليَّ محمد الكِندي، وبصحبته حرملةُ بن المنذر، وحدثاني عن الحجازِ وعن حِسان الحجاز. حدثاني عن مواسمِ الحج، وعن وفودِ الحج، وكيفَ تتقاطرُ رباتُ الخدورِ والمُنعَّمات في كلِ عامٍ إلى مكةَ كي يتهافتَ الشعراءُ والأشرافُ على أبوابِ أخبئتهنّ. غادراني بعدَ أن عينا يلملماً موعداً بيننا، وتركا لي مهلةَ شهرينِ كي أختارَ إن كنتُ أنوي صحبتَهما والشخوصَ معهما إلى الحجاز .

لم تكن تلزمني كل تلك المدة كي أعقدَ العزمَ على الرحيل. فبعدَ

Twitter: @abdulllah1994

أن توفيَ والدي في طفولتي، وبعدَ أن انتزعتني جدتي وعمي من أحضانِ والدتي، لم تبقَ لي أيّة أوشاجٍ تقيدني إلى صنعاء. وضعتُ رحلي على ناقتي، ووجهتُ عنقَها صوبَ يلملم، وعندما اجتازتْ بي بضعةَ فراسخٍ، التفتُ إلى الوراء كي ألقيَ نظرةً أخيرة على شجراتِ الغاف المنتشرة ورائي. لمحتُ خيالَ امرأةٍ تقفُ بمفردِها بين الأشجارِ وتشخصُ بنظرِها صوبي. أشحتُ بوجهي مبتعداً عنها، وأنا لا أصدقُ أنني لن أراها ثانية. تساءلتُ حينَها: لماذا لم أشببْ بابنةِ عمي من قبل، وأنا الذي لم أبقِ أيّةَ امرأةٍ إلا وقد نسبتُ بها أو سميتها في شعري؟

عندما وصلتُ يلملماً، وجدتُ محمداً وحرملةَ في انتظاري. كانَ فرحُهما بي لا يعدلهُ إلا القلقُ الذي بددتهُ عنهما بحضوري. سرعانَ ما ذاعَ صيتُنا بالحجاز، وصارَ الحجاجُ من الأشراف يتحامون المواقعَ التي ننزلُ فيها كي لا تُفتنَ نساؤهم بمرآنا. كنا ثلاثةَ فتيةٍ أصباحَ الطَلعة، وكانَ الشِعرُ يتحلبُ في ألسنتِنا مِطواعاً دونَ عُسر. سرعانَ ما نسيتُ اسمي فيما نسيتُ من أوشاجِ صنعاء، فأصبحتُ أُعرفُ بين الناسِ بوضاحِ اليمن، وكانَ ذلك كل ما أحتاجهُ كي أضيفَ إلى شخصي ذاكَ السحرَ الذي أنوي إلحاقَه بالنساء، ولكي نزيدَ من ذاك السحر، عمِدنا إلى أقنعةٍ صرنا نلبسُها كلما نزلنا بمكان، فصارَ الناسُ يتحدثونَ أننا نلبسُها خشيةَ العينِ وحذراً على أنفسِنا من النساء، بينما الحقيقةُ التي كنا نعرفُها ثلاثتنا؛ أنَّ هذه الأقنعةُ جعلت الاهتداءَ إلى شخوصِنا أمراً

Twitter: @abdulllah1994

أكثرَ يسراً على أولئك النسوة اللاتي سمعنَ عنا وأتينَ ينشدنَ لقاءنا من العراقِ والحجازِ والشآم. لقد رجعتُ من الموسمِ الأول للحج، وبجوزتي عشرةُ قمصان مما يلي أجسادَ النساءِ اللاتي دهمتُ خدورهنّ.

عندما سمعتُ بقدومِ أم البنين إلى الحج، عضضتُ على شفتي ترقباً لمصيبةٍ قريبة. كنتُ قد سمعتُ بالكتبِ التي أرسلها الخليفة إلى الشعراء الأذيع صيتاً، والتي يتوعدُ فيها كل من حدثته نفسه بالتغزل بزوجةِ الخليفة أو إحدى جواريها بالعقاب الصارم، ولكني في نفس الوقت، كنتُ أعرفُ في نفسي طبيعتها النزِقة، والتي ما إن يحرمُ الشيء عليها، حتىَ تَجِدَّ في طلبهِ والسعي ورائه. نزلتْ أمُ البنين في ظهراني مكة، وعندما لاحظتْ امتناعَ الشعراءِ عن النسيبِ بها خوفاً من عقابِ خليفتهم، أرسلتْ إليّ بكتابٍ مع إحدى جواريها تطلبُ مني أن أنسبَ بها. عندما قرأتُ الكتاب أجبتُ جاريَتها بداهةً: لا أستطيعُ أن أنسبَ بشيءٍ لم أره! سرعان ما رجعتْ نفسُ الجارية بعد يومٍ لتسلّمني كتاباً حددتْ فيه مولاتها المكانَ والساعة اللذينِ أستطيعُ بهما أن ألقاها. عندما دخلتُ عليها انعقدَ لساني من الدهشة؛ كانت من أجمل النساء اللاتي رأيتهنّ في حياتي، ولا أدري إن كان الأثر الذي تركتهُ في نفسي مرتبطاً بجمالها فقط، أم أنها نشوة اقتحام المحرمِ وركوبِ الصعب!

عندما انتهى الموسم ودنا موعد رجوع أم البنين إلى دمشق، أتت

Twitter: @abdulllah1994

بي إلى خيمتها، وسألتني بلهجة حزينة: أهوَ فراقٌ بيني وبينك يا وضاح؟ لم أُجِبها، وإنما أخذت أحدقُ في عينيها السوداوين. قالت: الحق بي إلى الشآم، وسأسعى في أمرِك حتى أعلي من شأنك. أنتَ شاعر، وإذا مدحت الخليفة، فلا بدَّ أنكَ ستلقى حظوةً عندَه! لم أكن مقتنعاً بحديثها عندما تبعتها، فأنا لستُ غريراً كي أظن أن الخليفة سوف يرفعُ من شأن رجلٍ تغزلَ بامرأته. لقد تبعتها وفي بالي القصرَ المنيعَ الأسوار، والحرسَ شديدو المراس، والأهوالَ التي سأتجشمها كي أصل إلى بغيتي الأصعب.

هل كنتُ أحمقَ أم أهوجَ أم مجنوناً؟ لا أدري! كنتُ جميعَ ذلك، هذا ما أستطيع قولَه الآن، ولكني آنذاك، لم أكن أهتم لأسئلةٍ مثل هذه . كنتُ أرمي بنفسي وسطَ الليالي المدلهمة والأهوال المرعبة وفي بالي شيء واحد فقط :لذةُ النيل بعد تجاوز الخطر. هكذا كنت، حتى جاءت تلك الليلةُ المشؤومة التي غيرت من شأني إلى الأبد.

كنتُ عندَ أم البنين، عندما سمعنا طرقاً مفاجئاً على بابِ غرفتها. دفعتْ بي أم البنين إلى الحائط الذي وضعت فيه صناديق الملابس والزينة؛ حيث الصندوق المذهب الكبير، الذي أوصتني بالاختباء فيه إذا ما جدَّ علينا طارئ مثل هذا. اختبأتُ وسط الظلمة، وسرعانَ ما سمعتُ صوتَ رجلٍ ناعمٍ يبدو من لكنته أنه أحدُ عبيدِ القصر. قال العبد: مولاي الخليفة يقرؤك السلام، ويقول إن هذا

Twitter: @abdulllah1994

الجوهر أعجبه، فآثركِ به .

أخذت أستمعُ بإنصاتٍ وأنا أرجو في كل دقيقة سماع صوتِ إغلاق الباب، إلا أني –و يا للهول- سمعتُ صوت العبد وهو يضيف بخباثة: يا مولاتي، هبيني منهُ حجراً. اللعنة! يبدو أنَّ عبد السوء رآني أو سمع طقطقة الصندوقِ وأنا أقفزُ في قعره. صرخت أم البنين: لا يا ابن اللخناء، ولا كرامة .

أحسستُ بقلبي يغوصُ في أحشائي، ولم يفدني صوت أم البنين الخائف، والتي أخذت تذرع الغرفة بقلق بعد أن خرج العبد وهي تقول: الكلب سوف يشي بنا إلى الخليفة. ابقَ بالصندوق يا وضاح، إياك والخروج من الصندوق يا وضاح.

بعد دقائقٍ من الرعب والفزع، سمعتُ وقعَ خطواتِ الرجل الأكثرِ إفزاعاً وهو يدخلُ الغرفة ويغلق البابَ خلفَه .اقتربتْ الخطوات من الموضع الذي اختبئ فيه، ثم توقفت، ثم سمعتُ صوتَ الخليفة لأول مرة: يا أم البنين، ما أحبَّ إليك هذا البيت من بين بيوتك فلمَ تختارينه؟ ردت أم البنين عليه بصوتٍ واثق: أجلس فيه لأنه يجمع حوائجي كلها فأتناولها منه كما أريد من قرب. هتف الخليفة: هبي لي صندوقا من هذه الصناديق. أجابت أم البنين: كلها لك يا أمير المؤمنين. قال الخليفة: ما أريدها كلها، وإنما أريد واحداً منها. أجابت: خذ أي شيء. قال الخليفة: هذا الذي جلست عليه. قالت: خذ غيره

Twitter: @abdulllah1994

فإن لي فيه أشياء أحتاج إليها. قال: ما أريد غيره. قالت: خذه يا أمير المؤمنين.

خذه! خذه! هكذا وبكل بساطة؛ خذه! دعا الخليفة العبيد إلى الغرفة، وأمرهم بحمل الصندوق الكبير المذهب حتى انتهى به إلى مجلسه، فوضعه فيه، ثم أمرهم فحفروا بئراً في المجلس عميقة، ونحي البساط، وحُفرت إلى الماء، ثم دعا بالصندوق وقال: إنه بلغنا شيء إن كان حقاً فقد كفناك ودفناك ودفنا ذكركَ وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر، وإن كان باطلاً فإنّا دفنا الخشب وما أهون ذلك. ثمَّ قذف بالصندوق في البئر، وأهيل عليه التراب، وسويت الأرض، ورُدَّ البساط إلى حاله، وجلس عليه الخليفة، ثم ما رُئِيَ بعد ذلك اليوم لوضاح أثر في الدنيا".

هتف صبيٌ في مقتبل العُمر:

"ما هذا الهراء يا جدي؟ إذا كان الخليفة قد دفنكَ وسط الصندوق وأهيل عليك التراب، فكيف تجلسُ بيننا الآن وتحكي لنا هذه القصة؟"

ابتسمَ الكهلُ ذو الشعر الأبيض حتى بانت نواجذه الصفراء، بينما هزّت العجوز الجالسة بجانبهِ رأسَها وهي تقول:

"ها قد وصلتَ إلى الجزء المفضلِ لديه. لم يحكِ عليكَ هذه الحكاية إلا ليدفعكَ دفعاً إلى هذا السؤال".

"انتظري يا امرأة، لا تفسدي عليّ حكايتي قبلَ أن أنهيَها. ألا

Twitter: @abdulllah1994

يمكن لرجلٍ عجوزٍ أن يقصَّ بينكم حكايته دونَ أن تفسدوها؟" هتفَ الكهلُ وهو يقفزُ بنشاطٍ من مكانه، ويقفُ بحماسٍ على كلتا قدميه، "بالضبط يا علي، كنتُ سأدفنُ وأغيبُ تحتَ التراب ويغيبُ عن الجميع أثري، لولا أني تذكرتُ أشجار الغاف في اللحظة التي دفعتني فيها زوجة الخليفة إلى الصناديق".

"لم أفهم"!

"في تلك اللحظة التي سمعتُ فيها قرع الباب، لا أدري ما الذي طرأ عليّ، ولكني بدل أن أقفز وسط الصندوق المذهب الكبير، قفزت إلى الصندوق الأصغر والموجودِ خلفَه، تماماً كما كنتُ أفعلُ مع أشجار الغاف. ما الذي دفعني إلى ذلك؟ لا أدري! ربما هي غريزة السلامة التي أشارت علي بعدم الوثوق لا بالعبد ولا بزوجة الخليفة نفسها! ربما هي طفولتي ووجه ابنة عمي التي أخذتُ أتذكرُ صورتَها طوال الليل وأنا اختبئُ في ذلك الصندوق الصغير! عندما أذن للفجر، سمعتُ صوتَ زوجة الخليفة وهي تغادر الغرفة، وعندها غادرت الصندوق بحذر، وتدليت من النافذة، ومن ثمَّ قفزتُ فوقَ السور، ونفذتُ بجلدي وأنا أحمدُ لربي الحياة الجديدة التي كتبها لي".

"تقصدُ أنكَ قفزتَ من فوقِ الصندوق المذهب، واختبأت في الصندوق الصغير، دون أن يراك أو يشعرَ بكَ أحد؟"

"نعم، وما زلتُ قادراً على مثل هذه القفزات. هل تريدُ أن

Twitter: @abdulllah1994

ترى؟"

أومأ الصبي برأسهِ وابتسامة خبيثة تترقرقُ في شفتيه. رفعَ الكهلُ ثوبَه إلى وسطهِ وهتفَ بالصبي :

"قف عند الباب، وفي اللحظة التي تخال فيها أني سأقفز نحوك اهرب. سوفَ أصلُ إليك بقفزتين".

"قفزتان فقط"!

"قفزتان." أكدَ الكهلُ في فخر.

وقفَ الصبي في أهبةٍ وقد شدَّ ساقيه استعداداً للهرب، بينما أخذتْ العجوز تقلبُ نظرها بين الكهلِ وحفيدهما وهيَ تهزُ رأسَها .

فجأة.. قفزَ الكهلُ قفزةً عظيمةً هائلة قطعَ بها نصفَ المسافةِ الفاصلة بينه وبين الصبي، ولكنهُ بدلاً من أن يردفها بأخرى توصله نحو حفيدِه، انحرفَ بكاملِ جسمه نحوَ المرأة العجوز، ليهبط عليها مثل الباشق، وليضمها بين ذراعيه، بينما هيَ أخذت تصرخُ بأعلى صوتها:

"قِرد، قِرد، أنتَ يا عبدالرحمن قِرد"!

Twitter: @abdulllah1994

Zytglogge[1]

(التزيت كلوكه)

---

(١) Zytglogge : (تُنطق: تزيت-كلوكه) بمعنى برج الساعة، و هي الساعة الشهيرة الموجودة في بيرن، عاصمة سويسرا.

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

"الوقت العجوز؛ ذاك الذي يدير العجلة، الأطول و الأعظم من الجميع!
مصنعه مكانٌ سريّ، عملهُ صامت، ويداهُ خرساوان"
تشارلز ديكنز

-١-

ينتصبُ برجُ الساعة (التزيت كلوكه) في الجهة الغربية من مدينة بيرن القديمة، و لو توقفتَ لأربعِ دقائق قبل تمامِ الساعة، لرأيتَ قافلةً غريبةً من ثلاثة دببةٍ معدنية تنبعث من أحدِ شبابيك الساعة الشرقية؛ أولُها يمشي على أربعة أقدام، و ثانيها على قدمين، و الثالث يتطي جواداً مُطهماً. فوقَ الشرفة، يجلسُ مهرجٌ أحمرُ الملابس، هو في سحنتهِ أقرب إلى الشيطان، ما إن يرى قافلة الدببة حتى يبدأ بسحبِ يديه الاثنتين ليقرعَ الأجراس المعلقةَ فوقَه، و كأنهُ يقول: "أنا حارسُ الساعة، أنا حارسُ الوقت، أنتم تموتون و أنا أبقى، أنتم تبكون و أنا أضحك."

في الجانب الغربي من الساعة، تدور العقاربُ الذهبية الحاملة نقوشَ الشمس والقمر والنجمة والضوء، فيما تتوزع ملامح أربعة أشخاصٍ على اللوحة المرسومة كخلفيةٍ للساعة: كورونوس (إله الوقت، و النسخة البدائية من الشيطان)، آدم و حواء وهما يخصفان من ورقِ الجنة ويداريان بهِ سوءاتهما، وملاكٌ مصفح بالحديد، تلوحُ فوق رأسه هالة ضوئية، يمسكُ بالسيفِ عمودياً في وجه آدم و حواء، ليسدَّ بهِ طريقهما إلى الجنة، و ليعلنَ بذلك عن بدايةِ الزمن الأرضي،

Twitter: @abdulllah1994

بعد ارتكاب الخطيئة الأولى حسب القصة المسيحية.

هل هذه هي بداية الوقت كما حلا للفنان فيكتور سوربيك تسمية لوحته المنقوشة على وجه الساعة؟ وهل للوقت بداية أو نهاية؟ وهل له وجود ماديّ أصلاً؟ أسئلة لا حصر لها بدأت مع بداية الإنسان، و لن تنتهي إلا بنهايته، و ليس أقلها أهمية ذاك السؤال الذي خطر في بال الشاب البيرني "ألبرت أينشتاين" وهو يراقب "التسيت كلوكه" أثناء ابتعاده عنها في الترام:

هل الوقت عالميّ أم فردي؟ مطلقٌ أم نسبي؟

"لو حملتَ ساعةً معك في الترام، و انطلقتَ مبتعداً عن "التسيت كلوكه" بسرعة الضوء، فإنّ عقارب "التسيت كلوكه" ستتوقف، فيما سيستمر دقّاقُ ساعة معصمِكَ بالدوران."

هكذا كانت إجابة أينشتاين في ذلك العصر الذي كانت فيه الأسئلة تتوالى محاولةً استبدال الإطلاق بالنسبية، والعالمية بالفردية. بدل عالمية أخلاق كانط، هناك سوبرمان نيتشه! بدلَ الأديان ذات الأجوبة المطلقة والمتسامية هناك الأسئلة الوجودية التي لا تتحقق إلا باتخاذ الفرد لخياره الحرّ.

"الفردُ يحملُ وقتَه معه، الفردُ هو مرجعية كل شيء، لا حاجةَ إلى المطلق، لقد استُبدِل اللهُ بالفرد!"

عُذراً سيد أينشتاين! لا يمكنني أن أعرضَ إجاباتِك هذه دون أن أحكيَ قصةً دارت أحداثها في جوف الساعة التي أوحت لك بنظريتك النسبية، في جوف "التسيت كلوكه"، جوف البرج..

Twitter: @abdulllah1994

في ذلك الوقت الذي كان فيه برجُ الساعةِ يُستخدمُ لحبسِ المومسات اللاتي يتعرضن لرجال الدين و يحاولنَ إغواءهم..

-٢-

في تلك الليلة الباردة والمظلمة التي بدأت فيها قصتنا، كانت قطرات المطر تتساقط من أعالي السماء بشكل محموم و متتابع. انتفض أسقف كاتدرائية بيرن من فراشه، وانطلق مسرعاً نحو الشرفة المفتوحة في أعالي البرج الذي يحوي منامته. عند الشرفة، أخذ الأسقف العجوز يتطلع في الظلمة الحالكة، ويستنشق هواء الليل البارد، وهو يحاول أن يبعدَ عن ذهنهِ تفاصيل حلمه الرطب الذي أيقظه مفزوعاً من نومه. كان جرس برج الساعة يقرع في الخارج مؤذناً عن حلول منتصف الليل.

لم تفلح محاولات الأسقف العجوز في التخلص من تفاصيل حلمِهِ الذي أمتعه و أفزعه في نفس الوقت، إذ سرعان ما رمى الأسقف نفسَه في ثنايا هذه التفاصيل و هو يحاول استرجاع ملامح وجه المرأة التي رآها عاريةً وسطَ حلمِه.

في الحُلْم: كانت السماء صافيةً و فسيحة، و كانت الشمس مشرقةً و مريحة، فيما ارتمت التلال الخضراء في الأفق لتعطي الحلم خلفيةً بانورامية هائلة. على ضفة النهر، كانت امرأة الحُلْم تجلس على صخرةٍ ملساء و قد تعرّت تماماً. كان جسمها العاري يشع بياضاً و نقاءً، و كان ضوء الشمس ينعكس على جلدها البضّ ليحيطَ بها ويجللها

Twitter: @abdulllah1994

بالنور، وكأنها ملاك أو قديسة. أكثر ما أزعج الأسقفَ عندما أفاق من نومه هو التأثير الذي تركته امرأة الحلم في جسدِه، والذي انتصب شاهدا على الشهوة المُحرمة التي ما زالت تتقد في جسد الأسقف العجوز.

لمح الأسقف حركةً في الباحة الممتدة أمام الكنيسة، وعندما اشرأبّ بعنقه، تبينَ خيال امرأةٍ مرتجفة، تختبئ خلف تمثال الرجل الضخم ذي القرنين، والذي يحمل ما بين يديه ألواح الوصايا العشر. كان التمثال يعود إلى موسى، وكان يشير فيه بإصبعه إلى الوصية الثانية: "أن لا تصنعَ صورةً أو شَبَهاً لما هو في الجِنان فوق."

أحسّ الأسقفُ بالغضب لهذا الانتهاك الصارخ لحرمة الكنيسة، ولكنه حينما استرجعَ حلمه، استدرك سريعاً، وهو يتذكر صورة المرأة القديسة المغتسلة وسط النهر. ربما كانت هناك علاقة ما بين المرأتين! ربما أرسلت إليه السماء هذه المرأة، في هذه الساعة، وتحت جنحِ الظلمةِ و البرد، كي يصلَ إلى امرأة حلمه: القديسة، الملاك، المِثال، المُطلق!

لبس الأسقفُ نعليه، ثم أسرع بهبوط السلالم الدائرية التي تربط منامته بمدخل الكاتدرائية. دفع الأسقفُ باب الكاتدرائية الضخم ليُحدثَ صريرا مزعجاً وسطَ الليل. أطلَّ برأسه، وأخذ يطوحُ بالمصباح يمينا و شمالاً. ابتلع الأسقفُ ريقه في ترقبٍ حينما تبينَ المرأة البغي و هي تختبئ بملابسها الرثّة خلف التمثال. أشارَ الأسقفُ بمصباحه ناحية المرأة البغي؛لم تتحرك. حينما أشارَ مرة ثانية، تشجعت على الاقتراب ناحيته خطوةً واحدة. تراجع الأسقفُ إلى الداخل تاركا الباب الضخم مُشرعاً خلفه. ما هي إلا دقائق، حتى تبعته المرأة البغي

Twitter: @abdulllah1994

إلى منامتِه في الأعلى، ليُغلقَ خلفها الباب الخشبي الموحش.

عندما أفرغَ الأسقفُ شهوته، لم يعد يرى في المرأة المحشورة تحته لا القديسة ولا الملاك ولا المِثال ولا المُطلَق! كان يرى امرأةً فاجرةً تلوثُ فراشَه، وكانَ يُحسّ بثقلِ الخطيئة الأولى يرزحُ فوقَ كتفيه. ماذا سيحدث لو أنّ هذه المرأة الفاجرة باحت لأحدٍ عما حصل لها في منامته؟ ماذا سيحدث لو أنها أشارت إليه من أحد مقاعد الكاتدرائية و هي تهمسُ: أنا أعرفُ هذا الرجل!

أمسكَ الأسقفُ بيدِ المرأة البغي وقادها إلى الأسفل؛ إلى غرفة الاعتراف. هناك، تركَها و سطَ الظلمة، وأسرع ليوقظَ قارع الأجراس من نومه الثقيل. حدّق قارعُ الأجراسِ باستغرابٍ في وجهِ من أيقظه، وعندما تبيّن ملامحَ الأسقف، انتصبَ واقفاً على قدميه. تمتمَ الأسقف:

"هناكَ امرأة خاطئة في غرفة الاعتراف، خذها إلى حارس الساعة، وأخبره أن الساعة لا تحتاج إلى صيانة هذا الأسبوع."

-٣-

لبرج الساعة تاريخٌ طويل ومفزع. قبل بناء الساعة، كانَ البرجُ سجناً معروفاً يُستخدمُ لحبسِ المومسات والبغايا. بعدَ بناء الساعة، أُلغي هذا التقليد في العلن، ولكنه استمرّ في السرِ لحبس هؤلاء الذين لا يُراد لأحدٍ أن يسمعَ بهم أو يدري بموتِهم. كان الأمر نتاج معاهدةٍ ما بين أسقف كاتدرائية بيرن والحارس القائم على تعهدِ ميكانيزم الساعة.

سلّمَ قارعُ الأجراسِ المرأة البغي لحارس الساعة، وعندما أدّى

Twitter: @abdulllah1994

إليه رسالة الأسقف فهمَ حارسُ الساعةِ مغزاها مباشرة: سبعةُ أيامٍ متواصلة وسط البرج تعني موتاً محققاً بسببِ العطشِ أو الجوعِ أو الجنون. قادَ حارسُ الساعة المرأة البغي إلى جوف البرج، وعندما أغلقَ وراءها البابَ الحديديّ، حدثَ أمرٌ غريبٌ للغاية: توقفَ الوقتُ بالنسبةِ إلى هِيلجا!

لم تقاومْ هِيلجا الأسقفَ ولا قارع الأجراسِ ولا حارس الساعة. كانت ترتمي بقدرها بين أيديهم وكأنها ورقةٌ استسلمت لعبثِ الريح. كانت بردانة وحافية وجائعة عندما بدأت قطرات المطر بالتساقط. عندما قاربت الساعة منتصف الليل لم يعد بإمكانها أن تصبر أكثر. ليلة مثل هذه لن تجلب لها مزيداً من الزبائن. كان عليها أن تخرج تحت المطر والظلام والبرد علّها تجدُ رجلاً يرمي في رَحِمِها قطعاً نقدية. كان رجل الدين الحليق الذي نام معها قبل أسبوع هو أول من خطر في بالها وهي تمشي وسط الليل. عندما وصلت إلى الكاتدرائية، لم تجد رجل الدين الوسيم. بدلاً منه، وجدت ذاك الأسقف المُرعب الذي قادها إلى منامته في الأعلى، والذي يبدو أنه كان سبباً رئيسياً في حبسها الآن في هذا المكان الموحش.

جلستْ هيلجا وسطَ الظلام، وأخذت تتذكرُ أحداث طفولتها في فرايبوج. كانت الطفلة العاشرة في بيت عائلتها الفقير والبائس. كانت تحمل دلوَ الحليب وتمشي به بينَ البيوت عندما شاهدتها العجوز التي تملأ المساحيق وجهها، والتي علّقت على صدرها النافر. لم يمر على هذه الحادثة سوى أسبوعين حتى توقفت العجوز ذات المساحيق أمام

Twitter: @abdulllah1994

دارهم وبصحبتها رجلٌ حليق الرأس، مفتول العضلات. تحدث الرجل الحليق إلى والدها، وبعد يومين، رجعَ و العجوزُ بصحبته، ليأخذاها من بيت والديها إلى بيرن المظلمة الباردة، بيرن المرعبة، المكان الذي مارست فيه البغاء أولَ مرة. هل كان يجدرُ بها أن تقاوم؟ لقد هربت ثلاث مرات، و لكن الجوع في كل مرةٍ كان يُرجعها إلى مهنتها الرخيصة التي تحشرُ في فمها ما يكفي كي يبقيها حيةً حتى الزبون التالي.

جلستْ هِيلجا وسطَ الظلام، وحاولت أن تتبينَ أي شيء حولها دون فائدة. كانت الظلمةُ أسمكَ من الباب الحديدي نفسِه. حاولت أن تصغي إلى ما حولها، لم تسمع سوى صوت أنفاسها اللاهثة. كم مضى على هِيلجا وهي جالسة وسط البرج؟ لا أدري! لقد توقف الوقتُ بالنسبة لهيلجا، توقفَ الوقتُ وهي في جوفِ البرج، جوفِ الساعة..

ولكن عطشها أخذ يزدادُ تدريجياً. جوعها أخذ يزدادُ تدريجياً. جنونها أخذ يزدادُ تدريجياً. ذكرياتها أخذت تتلاشى تدريجياً. لا بدَّ أن هذه مؤشرات على الوقت. لا بدَّ أن أسيرة الساعة تخضع لمنطقِ الساعة نفسِه.

انتفضت هِيلجا فجأةً من موضعها وأخذت تضربُ برأسها على الحائط. لا بدّ أن هناك طريقة لإيقاف الوقت! لقد تلاشت الذكريات تماماً من رأسها، لم يبقَ سوى لونٍ أصفرَ يختلط في داخل رأسها مع الظلمة التي تحيط بها من كل مكانٍ.

لا بدّ أن هناك طريقة لإيقاف الوقت! أخذت هِيلجا تتلمسُ

Twitter: @abdulllah1994

طريقها بخطى مجنونة، حتى عثرت قدمها بعتبةٍ تشبه الدَرَج. صعدت هِيلجا عَتبات الدرجِ على يديها وقدميها وكأنها هرةٌ مذعورة. عندما وصلت إلى الأعلى، اصطدمت بما يشبه الباب الخشبي. عندما دفعت هِيلجا الباب حدثت معجزة: لقد نسيَ حارسُ الساعة إقفال باب العليّة الموصل لميكانيزم الساعة!

غمرَ الضوء المتسللُ من أعلى عيني هِيلجا حتى كاد أن يعميَهما و يملأهما بالظلام. عندما فتحت هِيلجا عينيها ثانية، وجدت نفسَها أمام حجرة مستطيلة تتكونُ من ستة أعمدة خشبية، تمتلئ من قاعدتها حتى أعلاها بالتروس و الحبال و الجنازير.

هذا هوَ! هذا هوَ طريق الخلاص! هذا هوَ طريقُ الموت!

رمتْ هِيلجا نفسها وسط الحجرة الخشبية، وسرعانَ ما سَحلتْ الجنازيرُ عظامها، وانغرزت التروسُ في أحشائِها الرخوة.

عندَها، عندما انطفأ النورُ في عيني هيلجا؛ توقفتْ عقاربُ "التسيت كلوكه" عن الدروان لأول مرة. أخذَ أهلُ بيرن يتطلعون في وجه الساعةِ باستغراب، وأخذوا يتحدثون فيما بينهم عن هذا الحدث غير العادي. الخبازُ تأخرَ في موعدِ إقفال مخبزه. الفتاةُ انصرفتْ دونَ أن تحظى برؤية عشيقها. الأسقفُ رقدَ في منامتهِ متأخراً. رجالُ الشرطةِ لم يبدأوا دورياتهم الليلية إلا متأخراً.

Twitter: @abdulllah1994

الأحداثُ الغريبةُ
التي حصلتْ في قريةِ "ك"

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

(تحذير من المؤلف: هذه القصة مليئة بالمشاهد الغريبة والدموية، وتفتقد بشدة للمنطقية والعقل.. لذا وجبَ التنويه)

-١-

كانَ الجوُ بارداً في الخارج. نظرت الدجاجةُ عبرَ نافذةِ القنِّ الذي تسكنهُ منذ سنينٍ فلم تستطع أن تميّز ما وراء الضبابَ والصقيع. كانتْ ترقدُ وحيدةً فوقَ سريرِها، وصدرُها الهزيلُ يعلو ويهبط في صعوبةٍ ومشقّة. أينَ هوَ زوجُها الديك؟ كان الطبيبُ قد أخبرهم قبلَ أيامٍ أن وفاتها محتّمة لا محالة. ألم يستطعْ زوجها أن يتركَ العملَ ويبقى بجانبِها وهي تنزِعُ ألفاظَها الأخيرةَ على الأقل؟

فجأةً سمعت صريرَ البابِ وهو ينفتح .التفتتْ بلهفةٍ تبحثُ عن وجهِ زوجِها الحبيب، متلهفةً لسماعِ صوتِه. بدلَ أن ترى زوجَها بريشهِ الملون وعرفِه الأحمر، رأت لقلقاً طويلاً أبيضَ الجناحين يدخلُ القِنّ ويغلقُ البابَ خلفَه. أخذتِ الدجاجةُ تحدقُ في وجهِ اللقلقِ في دهشةٍ واستغراب. لم يسبق لها أن رأت هذا اللقلقَ من قبل! توجهَ اللقلقُ في ثقةٍ نحوَ الطاولةِ دونَ أن يتكلّف حتى النظرَ ناحيتَها. هناك.. خلعَ معطفهُ الطويل ولبسَ قفازين حريريين ببطءٍ ومهارة. عندما فرغَ من لبسِ القفازين، تقدمَ نحوَ الدجاجةِ المريضة حتى وقفَ فوقَ سريرِها وفرد جناحَه الأبيضَ ليخرجَ من تحتِهِ ساطوراً حديدياً هائلاً. اتسعت حدقتا الدجاجةِ وصاحت في فزعٍ:

Twitter: @abdulllah1994

"من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟"

أمسكَ اللقلقُ بهدوءٍ قدمَ الدجاجةِ الصغيرة وثبتّها فوقَ السرير . حاولتِ الدجاجةُ المريضةُ أن تحررَ قدمَها دون جدوى. رفع اللقلقُ الساطورَ في الهواءِ ثم أهوى بكلِ قوةٍ فوقَ قدمِ الدجاجة. صرختِ المسكينة في ألمٍ شديدٍ وهي ترى دمَها يتطايرُ ليصبغَ جسدَ اللقلق. تناولَ اللقلقُ القدمَ المقطوعةَ ورماها في الزبالةِ المجاورة مع القاذورات. أخذت الدجاجة تبكي في صمتٍ عندما أمسكَ اللقلقُ قدمَها الأخرى. سرعانَ ما ارتفعَ الساطورُ المرعبُ إلى الأعلى ليلتمعَ ويهبطَ باتراً قدمَها الأخرى. بدأتِ الدجاجةُ تنشجُ بهستيرية.

رمى اللقلقُ بقدمِها الأخرى في الزبالةِ ثم أخذَ يمسحُ طرفَ ساطوره بحشيّةِ سريرِها. أمسكَ اللقلقُ فجأةً بعنقِ الدجاجةِ ووضعَ طرفَ الساطورِ الحادِ فوقَ صدرِها. أخذتِ الدجاجةُ تصرخ:

"أرجوكَ لا تفعل. أمهلني حتى أرى زوجي. أمهلني حتى أرى زوجي"..

ابتسمَ اللقلقُ بنشوةٍ وهو يحطمُ بالساطورِ عظامَ صدرِها:

"زوجكِ هو من استأجرني كي أنتزعَ قلبكِ حيّة".

-٢-

على بعدِ بضعةَ أميالٍ وبعدَ ساعتينِ من وقوعِ هذهِ الحادثة، غطسَ قلبٌ صغير وسطَ بحيرةِ قريةِ "ك". كانَ القلبُ مضرجاً بالدماءِ، وقد تمزقَ الشريانانِ اللذان يخرجانِ منه وكأنهما اقتُلعا اقتلاعاً. أخذَ

Twitter: @abdulllah1994

القلبُ يغوصُ ببطءٍ في أعماقِ البحيرةِ المظلمة. فجأةً امتدتْ يدٌ صغيرةٌ ناعمة وسط الأعماقِ الباردةِ وأمسكتْ به.

أخذت عروسُ البحرِ الصغيرةِ تتأملُ القلبَ في فضولٍ ودهشة. لم يسبق لها أبداً أن رأتْ شيئاً كهذا. كانَ القلبُ لا يزالُ دافئاً وسطَ راحةِ يدِها. بحركةٍ تلقائية، ألصقت عروسُ البحرِ القلبَ الذي تمسكُ به بجانبِ نهدِها الأيسر، في المكانِ المطابقِ لموضعِ قلبِها. أغمضت عينيها لبرهةٍ من الوقت، وكأنها تنتظرُ حدوثَ شيء مفاجئٍ نتيجةَ فعلتِها هذه. بعدَ دقائقٍ من الانتظار، وعندما لم يحصل شيء.. سبحتْ برشاقةٍ في اتجاهِ منزلِها.

عندما اقتربت من مسكنِها غاصت حتى القاع، وهناك اقتلعت بعضَ الطحالبِ والأعشابِ البحرية وغلفت بها القلبَ الصغير عدةَ مرات. دخلت المنزلَ في قلقٍ وهيَ تحاول إخفاءَ القلبِ المغلفِ الذي معَها. كانت جدتها ووالدها يجلسانِ سويةً بقربِ الدرجِ المؤدي إلى العليّة حيث تنام. سألها والدُها:

"ما هذا الشيء الذي تحاولينَ إخفاءه وراءَ ظهرِك؟"

ابتسمت عروسُ البحرِ بقلقٍ وأجابت:

"لا شيء. مجردُ بعضِ الطحالبِ البحرية".

"ابنُ عمكِ أتى يزورني هذا المساء" أضافَ والدُها فجأةً، وهو يرقبها باهتمام.

Twitter: @abdulllah1994

"ماذا يريد؟"

"يطلبُ يدكِ".

"قلتُ ألفَ مرةٍ أنني لا أريدُ الاقترانَ بهذا المأفونْ" صرخت عروسُ البحرِ بغضبٍ وهي تسبحُ مبتعدةً باتجاهِ العليّة.

عندما أغلقت بابَ غرفتِها خلفَها، سبحت نحوَ السريرِ واستلقت هناك لبضعِ ساعاتٍ مستغرقةً في تفكيرٍ عميق. ابنُ عمِها، حاجبُ القصرِ، مسؤول الحظيرةِ.. كلهم تقدموا لطلبِ يدِها ولكنها لم تجدْ من يخفقْ لهُ قلبَها. لم تجده بعد.

نزعتْ عروسُ البحرِ الصدفتينِ اللتين كانتا تمسكانِ بشعرِها الفاحمِ للأعلى ليسبحَ هابطاً فوقَ أكتافِها البيضاء. أخذت تتأملُ القطعَ الخزفية والغرائب التي جمعتها طوالَ السنواتِ الماضية وأخفتها تحتَ سريرِها. لا شيء يشابهُ هذا الشيء الدافئ المفلطح الذي التقطته هذا اليوم. أزالت عروسُ البحرِ الطحالبَ التي تحيط بالقلبِ الصغيرِ ثمّ وضعتهُ فوقَ جرةٍ خزفيةٍ مكسورة بجانبِ سريرِها. كان المنظرُ غريباً وجميلاً. عندما أحست بالنعاس يتمكن منها، أغمضتْ عينيها واستسلمت للنوم.

استيقظت مفزوعةً على صوتٍ رتيبٍ وغريبٍ بجانبِها:

طوم.. طوم.. طوم.. طوم..

التفتت ناحيةَ الجرةِ الخزفية، لتراعَ بلونِ الماءِ حولَها وقد اصطبغ

Twitter: @abdulllah1994

بحمرةٍ قانية. قفزت مبتعدةً عن الجرةِ الخزفية وانطوت في ركنٍ قصيٍ من الغرفة. أخذت تنظرُ إلى هذا الشيء المفلطحِ فوقَ الجرة، والذي كان ينقبضُ وينبسطُ دونَ توقفٍ:

طوم.. طوم.. طوم.. طوم..

كانَ الماءُ يندفعُ من فتحتي الشريانين المزقين، وقد اصطبغَ بلونِ الدم. ماذا يجبُ عليها أن تفعل؟ سوفَ يقتلها أبوها إن رأى هذا الكائن الغريب الذي ينفث هذه الحمرة القانية مع كلِ نبضة. ولكنه لا يتوقف! لا يتوقف! اصطبغَ الماءُ بالكاملِ في غرفتِها باللونِ الأحمر، وأخذَ يزدادُ حمرةً ولزوجةً مع كلِ نبضة. عندما لم يستطع قلبها تحملُ كل هذا الفزعِ أكثر، سقطت مغشياً عليها.

-٣-

في نفسِ اللحظةِ.. كانَ المغنيِ الغجريّ يتسللُ عبرَ الأحراشِ المؤدية إلى البحيرة. كان يرتدي جبّةً صوفية، ويضعُ حولَ عنقهِ قلادةً ذاتَ خرزٍ أسود. كانَ ينظرُ بين الفينةِ والأخرى خلفَه، ليتأكدَ أنه بمفردِه في هذه الليلةِ الموحشة. عندما وصلَ لشجرةِ البلوطِ على طرفِ البحيرة توقفَ عندَها واختبأ هناك.

كان يتساءلُ بينَه وبينَ نفسِه: هل ستأتي أم لا؟

منذُ وصولِه إلى قريةِ "ك" وهو يحاول إغوائها. منذُ اللحظةِ الأولى التي توقفتْ تستمعُ فيها لصوتِ كمانِه الحزين -وقد التمعت عيناها،

Twitter: @abdulllah1994

وسبحت في حلمٍ عميقٍ -وهو يحاولُ الوصولَ إليها. لم يتوقفْ عندما علمَ أنها زوجةُ عمدةِ القريةِ، وإنما ازدادَ إلحاحاً وكأنّ رغبةً شيطانيةً توجهه. كانَ يتذكرُ حديثَ جدتهِ بوجهها المصبوغِ تحتَ ضوءِ القمر :

"إذا رغبت في شيء، فلا تتوقفْ حتى تنالَه. ما دمتَ حياً، فهناكَ دائماً فرصةٌ أمامك".

بعدَ أن أكملَ شهراً في القرية، بدأ يرى نبوءة جدتِه تتحقق. بدأتِ المرأةُ تلينُ وتبادله الابتسامَ حينَ يبتسمُ لها .سرعانَ ما تبادلَ معَها الحديثَ لتفضي له ببرمِها من عمدةِ القريةِ العجوز، ومن هذه الحياةِ الرتيبة في القرية. حدثّها عن المدنِ الكبيرةِ التي لا تنام، عن الطرق التي لا تنتهي، عن النومِ عارياً وسطَ العراء. رقصَ قلبُه فرحاً عندما أتتْ إليه في يومٍ حانقةً بعدَ أن صفعها زوجَها، لتتفقَ معَه على موعدٍ للهرب.

وهاهوَ تحتَ شجرةِ البلوطِ الكبيرة ينتظرُها، ليهربَ في صحبتِها إلى حيثُ لا يعلم. مضى على وصولهِ بضعُ ساعاتٍ وليس هناكَ من أثرٍ لها! لا بدَّ أنها جَبُنت في اللحظةِ الأخيرة. لا بدّ أنها أحست بالذنبِ فلم تستطع الخروج. لطالما حدثتهُ عن نزعتِها الدينية والندم الشديد الذي يعتريها عندما ترتكبُ إثماً. بصق المغني الغجري وسط البحيرة.

فجأةً.. انزاحتِ الأكمةُ الكثيفة من خلفِه لتخرجَ حبيبتهُ منها . قفزَ الغجريّ لمقابلتِها واستقبلها في حضنه. همست خائفة:

Twitter: @abdulllah1994

"لا أدري إن كان يجدر بي فعل هذا؟"

"لا عليكِ.. سوفَ تكونين بآمانٍ معي. سوف أعتني بكِ".

"ولكن.. أنا متزوجة. هذه معصية كبيرة لا يرضاها الرب" تحشرجَ صوتُها تحت شفتيّ الغجري الغليظتين .

"لا عليكِ" همسَ الغجريُ وهوَ ينزعُ خاتَمَ الزواجِ من إصبعِها ويرمي بهِ في البحيرة.

"ماذا فعلت؟" صرختْ الفتاة بصوتٍ مذعور، بعدَ أن حررت نفسَها من حضنهِ، وانحنت على ركبتيها فوقَ البحيرة.

"ماذا تريدين بالخاتم؟ ألا تنوين الهربَ معي وتركَ كلِ شيء خلفك؟"

لم تجبْ الفتاة. كانت تنظرُ بذعرٍ إلى سطحِ البحيرة، وقد اصطبغَ لونُ المياهِ بحمرةٍ قانية. إنه غضبٌ من الله، غضبٌ من الله، غضبٌ على هذه المعصية العظيمة التي ارتكبتها. فجأةً.. انقشعت صفحةُ الماءِ اللزجةِ تحتَها، لتطفوَ جثةُ رجلٍ عاري الصدرِ بذيلِ سمكة !

دوّت صيحتُها العاليةُ في الأحراشِ حتى أيقظت الأجنّة وسطَ أرحامِ أمهاتِهم في القرية.

-٤-

والآن.. اسمحوا لي أن أقحمَ نفسي في القصة. فبصفتي كاتبَ الأحداث، لا يسعني أن أجلسَ على أريكتي مبتسماً، بينما تدورُ كلُ هذه الافتراضاتُ في رأسِ قارئي العزيز دونَ أن أتدخل. لو تعلمونَ مقدار الصلاحياتِ التي نملكها نحنُ رواةُ القصصِ لذهلتم. ولكن

Twitter: @abdulllah1994

جرت العادة أو التقليد أو العرف - لا أعلم- أن يُقصيَ المؤلف المحترمُ نفسَه عن القصةِ ويتركها للقارئ كي يقرأها بطريقته الخاصة. بل إنّ هناك مدرسةً أدبية تدعو إلى قتلنا نحن المؤلفين، وقراءة نصوصنا بعد شطبِ أسمائنا منها! على كل حال.. أنا لستُ محترماً كباقي المؤلفين، ولا أملكُ الصبرَ الكافيَ لأجلسَ هادئاً دونَ أن أقحمَ رأسي.

أنا أعي تماماً أن تدخلي هذا يفسدُ طبيعة السردِ القصصية. سوفَ أحاولُ أن أصلحَ بعضَ الأضرارِ المترتبةِ على دخولي المفاجئ. لماذا لا أصف لكم شكلي؟ فطبيعة الوصفِ هي الأقربُ لطابعِ القصةِ السردي. سأنظرُ للمرآة التي أمامي وأصفُ لكم ما أراه ..اتفقنا؟

عيناي جاحظتانِ وفمي المفلطح الكبير تعتليهِ فتحتان صغيرتانِ للتنفس. هل بدأتم تميّزون ملامحي وبالأخصِ عندما أخبركم أن لون جلدي أخضر؟ بالضبط ..أنا ضفدعٌ وسيمٌ وهزيل أرتدي أفخرَ أنواعِ الثياب. ألا يعجبكم شكلي؟ بإمكاني أن أتحولَ أسداً، ملاكاً، شيطاناً، ولكني أفضلُ صورةَ الضفدع. أشعرُ أني أسيطرُ على جميعِ حركاتي حينما أكونُ ضفدعاً.

نسيتُ أن أخبركَم عن السببِ الحقيقي لإقحامِ نفسي..

لماذا كنتم تفكرونَ بهذا الشكل؟ اللقلقُ قتلَ الدجاجة وانتزعَ قلبَها.. القلبُ هوى وسطَ البحيرةِ لتلتقطَهُ الحورية.. البحيرةُ اصطبغتْ بالدمِ لتحسبَها زوجةُ العمدةِ علامةً من الله!

هل هذه الأحداثُ كانت تؤدي إلى بعضها؟ هل كل حدثٍ لم

Twitter: @abdulllah1994

يكن ليحصل إلا بحدوثِ ما قبله؟ يجبُ أن أنبهكَم إلى أنكم تنظرون إلى ثلاثةِ أحداثٍ فقط اخترتها لكم. هناك ملايين البلايين من الأحداثِ التي تقعُ وتتشابك وتدفعُ ببعضِها البعضَ كل يومٍ، قد نعلمُ عنها وقد لا نعلم، ولكنها تحيطنا وتؤثر فينا. أنا لا أطلبُ منكم أن تنظروا إليها جميعاً، فسيصيبكم ذلك بالصداعِ وربما الجنون، ولكني أطلبُ أن تتذكروا أنها تحدث من حولكم بهذا الكم وهذا الزخم.

اسمحوا لي الآن أن أدخلَ داخل قصتي، لأفحصَ معكم الأحداثَ عن قربٍ أكثر. نظراً لتقاليدِ القصةِ اللعينة، سوف أتحدثُ عن نفسي بضميرِ الغائب، فعندما أريد أن أقولَ: "مشيتُ وسط الغابة" سوفَ أقول: "مشى الضفدعُ وسطَ الغابة". مجرد أمور تقنية تافهة. اتفقنا؟

-٥-

دخلَ الضفدعُ قنَّ الدجاجةِ المذبوحة .كان القنُّ مرتباً نظيفاً، لولا جسدَ الدجاجةِ المقطّع بطريقةٍ وحشية والمستلقي على السرير. وقفَ الضفدعُ على رأسِ السرير وقرأ صلاةً على روحِ الدجاجة. عبأ لنفسِه كوبَ ماءٍ، وجلسَ على الطاولةِ يشربه في هدوء.

تعالى صوتٌ يقتربُ من القنّ لينفتح البابُ فجأةً ويدخلَ الديكُ بصحبةِ اللقلق. وضعَ الضفدعُ سبابتهُ فوقَ شفتيهِ وأشار عليهما بالسكوت. عندما خرجَ الاثنانِ يعدوانِ في فزعٍ خارجَ القنّ، افترّ وجهه عن ابتسامةٍ عريضة.

Twitter: @abdulllah1994

سرعانَ ما علتِ الضوضاءُ وتراءتْ النيرانُ من خلفِ نوافذ القنّ. خرجَ الضفدعُ إلى الساحةِ المكتظة حاملاً جثةَ الدجاجةِ المسلوخة. تعالتِ الأصواتُ الفزِعة عندما رأى أهلُ القريةِ الضفدع. صرخَ أحدهم:

"هل الضفدعُ فعلَ هذا؟"

وسرعانَ ما توقفت قلوبهم فزعاً حينما أجاب الضفدعُ بهدوء:

"يعتمدُ على المنطقِ الذي تستعمله للوصول إلى السببية".

تعالت الأصوات والهمهماتُ بعدَ سكون قصير، والكل يتساءل عن هويةِ هذا الضفدعِ الذي يتكلم! كان أهلُ القرية ثلاثينَ رجلاً وامرأةً أو يزيدون، وفي مقدمتهم عمدة القرية وزوجته والغجريّ. صرخَ الغجري بصوتٍ عالٍ:

"إنه لعنة .لطالما أخبرتني جدتي أن الحيوان الناطق لعنة. لن تزولَ هذه اللعنة عن قريتكم حتى تصلبوه على شجرةِ البلوط".

ابتسم الضفدعُ بهدوءٍ وأجاب:

"أما جدتي فقد كانت تحذرني من النومِ مع زوجةِ جاري".

امتقعَ وجهُ المغني الغجري. هتفَ عمدةُ القرية:

"هل تستطيعُ أن تخبرنا من قتل الدجاجة بهذه الطريقة الوحشية، وحوّل لون البحيرةِ إلى دم؟"

"كما سبقَ أن أخبرتكم.. إجابتي تعتمدُ كليةً على الطريقة التي تستخدمها للوصولِ إلى المسببِ والسبب. من صبغ البحيرة بالدم؟

Twitter: @abdulllah1994

تستطيعُ أن تزعمَ أنها حورية البحرِ الصغيرة التي خبأت قلبَ الدجاجةِ عن والدها ..تستطيعُ أن تزعمَ أنه اللقلقُ الذي رمى القلبَ وسطَ البحيرة.. تستطيعُ أن تزعمَ أنه الديك الذي استأجر اللقلقَ ليقتلَ زوجته.. تستطيع أن تزعمَ أنه أنا بصفتي كاتب أحداثِ القصة.. تستطيعُ أن تزعمَ أنه الغجري الذي رمى الخاتمَ بالبحيرة وبسببِ ذلك تنبهت زوجتك إلى لونِ البحيرة، فالشيء لو لم يُلاحظ لا يكون لحدوثه قيمة.. كأنه لم يكن. ألا توافقني؟"

تلوّن وجهُ عمدةِ القريةِ وهو يحاولُ فكَ الكلامِ الغريب الذي تفوهَ به الضفدع للتو. صرخَ بعد برهةٍ قصيرة:

"لا يهمني ما تقوله. كل ما أعرفهُ أنني لا أريد ضفدعاً متكلماً وسطَ قريتي. لا بدّ أنك لعنة كما أخبر الغجري. سوفَ نصلبك الليلةَ على شجرةِ البلوط".

تعاظمَ الهتافُ والتهليل بين أهلِ القرية. ابتسمَ الضفدعُ وقال:

"ليسَ لديّ أي اعتراضٍ ولكن.. أريد أن أريكم شيئاً قبل أن تصلبوني".

سارَ أهل القريةِ والضفدع معهم، بعد أن ربطوا يديه. كانوا يحملون معهم جثةَ الدجاجةِ المسلوخةِ بعد أن طلبَ منهم الضفدعَ إحضارها. عندما وصلوا إلى البحيرة، تحلقوا حولَ شجرةِ البلوطِ الضخمة وحلّوا سراحَ الضفدع. تمطّى الضفدع بجسمِه النحيل ثم انحنى على طرفِ البحيرة الحمراء وغطسَ يدَه وسطَها. بعدَ دقائق من

Twitter: @abdulllah1994

الانتظار، استوى الضفدعُ على قدميه رافعاً قلبَ الدجاجةِ المذبوحة في يده. ارتسمت الدهشةُ على وجوهِ أهل القرية.

انحنى الضفدعُ على جسدِ الدجاجةِ المسلوخة ووضع القلبَ النابضَ وسطَ صدرِها. صرختِ الدجاجةُ فجأةً وهي تحاولُ أن تستنشقَ هواءَ الليلِ البارد. كان الهدوء يخيم على المكان. وقفت الدجاجةُ على قدميها وأخذت تنظر يمنةً ويسرة، ثم طارتْ بعيداً أمامَ أنظارِ أهل القرية المذعورة، إثر رؤيتهم دجاجة تطير في الهواء.

انحنى الضفدعُ ثانيةً فوقَ البحيرةِ وأخرجَ يدَه ممسكاً بخاتمِ زوجةِ العمدة. امتقعت الوجوه الثلاثةُ للعمدةِ والزوجةِ والمغني الغجري. هتفَ العمدة في انزعاج:

"لا أستطيع أن أتحملَ كل هذا الهراء. يجبُ أن نصلبكَ حالاً عل شجرةِ البلوط".

* * *

يختلف أهلُ قريةِ كْ عند الوصولِ إلى هذا الجزءِ الهام من القصة. فرغم أن رواياتهم متطابقة تماماً في خصوصِ قصةِ الدجاجةِ وعروسِ البحر وزوجةِ العمدة ..إلا أنّ كلاً منهم يروي القصة بطريقةٍ مختلفة عندما يصلُ إلى ما جرى للضفدعِ بعد أن أمرَ عمدةُ القريةِ بصلبِه. أكثر الروايات شيوعاً حتى الآن تقولُ إن الضفدعُ بمجردِ صلبِه، تحولَ ساطوراً شقَّ شجرةَ البلوطِ إلى نصفين ثم اختفى!

Twitter: @abdulllah1994

فهرس

الجارية ذات الشعر الطويل ٣
المكتباتي ١١
ما ترسمه الريح وتمحوه ٢٣
مقلع طمية ٣٣
حكاية الصبي الذي استطاع أن يرى النوم ٤٥
كرة البولينغ ٥٩
الإسطرلاب ٦٧
بيت الساحرة ٨٣
طاووس ملك ٩٥
الزوكانة ١١٣
لماذا يكثر أهل الرس من أكل الحبحر؟ ١٢٣
من قتل الواقدي؟ ١٥٣
كلب مدينة إفسس ١٦١
عندما أفاقت الجميلة النائمة ١٦٧
أرنولفيني ١٨٥
اسمي وضاح ١٩٧
التزيت كلوكه ٢٠٧
الأحداث الغريبة التي حصلت في قرية "ك" ٢١٧

Twitter: @abdulllah1994

النادي الأدبي بالرياض

وكما تنتهي كل رحلة، تنتهي رحلتنا.. فتعال لنرجع سوياً ونترك الصبيَّ -الذي رأى النومَ- نائماً وحدَه لأول مرة، في طريقه الشاق والطو
نحوَ الحقيقة التي لا تُدرك. تعال لنغادر بوابةَ البيمارستان متجهين إلى الجسر الكبير، ولكَ الخيار في أن تنظرَ أو لا تنظرَ إلى آخر الزقا
فهناكَ سوفَ تجدُ الشيخَ الرئيس -ابن سينا- ينزعُ عباءتَه السوداء، ويهبُ الشحاذَين بعضاً من الدراهمِ مقابلَ امتثالهما لما أمرهما به.

تصدر هذه السلسلة برعاية ثلوثية الدكتور محمد المشوح الثقافية

مطابع الحميضي
ت: ٤٥٨١٠٠٠ الرياض

ردمك: ٦-٦١-٦٢١-٩٩٦٠-٧٨